

لشيخ الإسلام محمد بن

شرح الأستاذ

أناهير بنت عير

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس

الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

<https://anaheedblogger.blogspot.com>

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من عمل الطالبات ولم تطلع عليها

الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله - عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله

وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشيطان،

ونسْتَغْفِرُ الله.

والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الثالث للسنة الثانية

كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

4	اللقاء الحادي عشر
28	اللقاء الثاني عشر
54	اللقاء الثالث عشر
80	اللقاء الرابع عشر
103	اللقاء الخامس عشر

اللقاء الحادي عشر

24 ربيع الأول 1441

تابع باب شدة الجدل

باب من هابه الناس خوفاً من لسانه

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على نبينا
محَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكلّنا على الله، نبدأ بتذكير أنفسنا بالنيّة
الصّحيحة لمثل هذه المجالس، هذه ليست مجرد مجالس
اجتماع نسائية نتحدث فيها، بل هذه مجالس نجلس فيها
وتجلس معنا الملائكة، لها من الحقوق ما لها، والّتي
يحاسبنا الله عليها، مثل هذه المجالس نعم من ربّ
العالمين، من حقّها: شكر ربّ العالمين أن جعل هذا
الأمر يسيراً وسهلاً وموجوداً وفي متناول اليد والحمد
لله ربّ العالمين.

وهذه المجالس ينظر الله -عزّ وجلّ- لأهلها، فيجب أن
نُري ربّنا من أنفسنا أحسن ما يكون؛ لأنه ينظر إلينا،

فلا بدّ من الأدب مع الله والأدب مع الملائكة وأعظم الأدب: شكره -سبحانه وتعالى- على هذه النعمة، الشكر العظيم، له الحمد والشكر ربّ العالمين، أحسن إلينا بأن أنزل الكتاب على رسوله -صلى الله عليه وسلّم- وعلمه الحكمة، وحفظ الكتاب وحفظ السنّة، نشكره -سبحانه وتعالى- على ذلك، ذاكرين نعمائه -سبحانه وتعالى-، نرجو منه -سبحانه وتعالى- أن يحفظ علينا النعمة وأن يزيّدنا، اللهمّ آمين!

لا زلنا في الكلام حول (كتاب الكبائر)، وقد مرّ معنا أن هذا الكتاب مهم جدّاً لأنّ الإنسان كما يعرف الصواب يجب أن يعرف الخطأ، مرّت معنا (الكبائر القلبية) وانتهينا منها، الآن نتكلّم عن (الكبائر اللّسانية)، اتّفقنا أن اللّسان بنفسه نعمة والكلام بنفسه نعمة عظيمة، هذه النعمة الواجب علينا شكرها، وشكر اللّسان والقدرة على النطق: استعماله في المكان المناسب، قدرتك على الكلام تستعملها في المكان المناسب، لكن من الممكن أن تكون هذه القدرة على الكلام مستعملة في الكلام غير المناسب وبهذا ندخل إلى الشر. وأشرنا إلى شيء مهم وهو مسألة الفصاحة، الكلام بنفسه نعمة والفصاحة في

الكلام نعمة عظيمة، المطلوب منا أمام الفصاحة في الكلام أن نستفيد منها ونعرف أنّها وسيلة لإبلاغ الحق، لكن ليست وسيلة للفت نظر الناس إلينا ولا للارتفاع على الناس، أيّ شيء ناولك الله إياه لا تستعمله لتعلو على الناس، قال تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)⁽¹⁾ ، (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)⁽²⁾.

هذا هو ما نريده: بقاء استعمال ما أعطاك الله في طاعة الله، وأفسد حال للعبد: أن يُعطى من الله نعمة ثم يستخدمها في أن يكون أعلى من الخلق!

وقد مرّ معنا أن هذا من أعظم الكبائر، أن يكون الإنسان كقارون، تكون فيه الشخصية القارونية، يريد أن يخرج على الناس بزينته، يريد أن تتعلق عيون الناس به، فالفصحاء والبلغاء وغيرهم ممن يلفت نظر الناس إليه، يكون قد مارس العلو، وهذه حال فاسدة للعبد.

⁽¹⁾ () القصص: 83.

⁽²⁾ () الفرقان: 63.

أيضًا من الأحوال الفاسدة للعبد وتكون باللسان: شدة الخصومة، وهي في الباب الذي بدأناه باب (شدة الجدل) هذه الخصومة الناس يرون قدرتهم عليها -نفسهم الطويل في الخصومة- مدحًا! ويكون الإنسان ظالمًا وعنده جدل، فيأتي لصاحب الحق ويجادله جدالًا يعجز معه صاحب الحق عن أخذ حقه، يجد صاحب الحق نفسه غير قادر على أخذ حقه، ويجد هذا المجادل في نفسه نشوة الانتصار ويعتقد أنه متروك! لا يدري أنه ارتكب كبيرة كتبتها الملائكة في السيئات، وتعرض يوم القيامة على الخلائق ويظهر جدل هذا المجادل، وأنه بهذا الشيء قد فتح باب النفاق على مصراعيه بنفسه؛ لأن شدة الجدل وشدة الخصومة من علامات النفاق، الماهر الذي يعتبره الناس قوي الحجة وقوي الشكيمة، وجريء وله لسان يتكلم به، هذا إذا كان على الباطل تصبح النتيجة: أن تكون قدرته: إشارة إلى نفاقه، والناس يفرحون أن عندهم القدرة على أن يجادلوا ويردوا. ويظنون أن هذا الضعيف الذي لا يعرف أن يرد عليهم أنه لا قيمة له! ولا يعرفون أن المسألة عكسية وأن الملائكة الكرام تدافع عن هذا الضعيف،

وَأَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَقْوِي هَذَا الضَّعِيفَ، وَأَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- سَيَأْخُذُ حَقَّهُ، وَمَنْ أَعْجَبَ حَقَّ اللَّهِ لِلضَّعْفَاءِ مِنْ هَذَا النَّوعِ: أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْهِ دِينَهُ وَيَتَسَلَّطَ عَلَى الْمَجَادِلِ مِنْ هُوَ أَكْثَرُ جِدْلًا مِنْهُ فَيَكُونُ جَزَاؤُهُ مِنْ جَنْسِ عَمَلِهِ، يَأْتِيهِ مَنْ يَجَادِلُهُ حَتَّى يَغْلِبَهُ، لَكِنْ الضَّعِيفُ يَبْقَى مُحْفُوظٌ الْإِيمَانِ، لَا يَدْخُلُ فِي جِدَالٍ وَلَا يَخْرُجُ عَنِ الْأَدَبِ الْمَطْلُوبِ، سَيَتَبَيَّنُ مَاذَا يَقْصِدُ بِهِذِهِ الْكَبِيرَةُ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)⁽³⁾، فهُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ الْجِدَالِ مَقْبُولٌ، وَأَكِيدُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ الْمَقْصُودُ، سَنَضْعُ عِلَامَاتٍ لِهَذَا وَعِلَامَاتٍ لِهَذَا.

قال: باب شدة الجدل وقول الله تعالى: (وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)

نبدأ بباب (شدة الجدل) وهنا المقصود: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَفَاوِضُ وَيَنَازِعُ وَيَغَالِبُ وَيَجَادِلُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ، كُلُّ هَذَا لِأَجْلِ أَنْ يُظْهَرَ حُجَّتُهُ أَوْ شَبْهَتُهُ أَوْ يَثْبُتَ كَلَامُهُ أَوْ رَأْيُهُ فِي مَوْقِفٍ. وَهَذَا الْجِدَالُ لَا بِأَسْ بَهْ، إِذَا كَانَ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَبِالتَّزَامِ الْأَدَبِ الشَّرْعِيِّ وَهَذَا يَعْرِفُ فِي مَوْطِنِهِ، وَمَنْ الْأَدَبِ الشَّرْعِيِّ: أَنْ تَعْرِضَ أدْلَتَكَ وَتَبَيِّنَها وَتَسْمَعَ

⁽³⁾ (النحل: 125).

منه ما يقول ولا تتعدى عليه. فإذا بيّن حجته بيّن حجتك، فإذا بيّنت حجتك وعاد مرّة أخرى للدخول في الجدل، أنت اقطع الجدل، أكثر من ذلك لا يكون جدالاً بالتي هي أحسن، إلى هنا انتهى، بيّنت الحق ورددت على الشبهة، انتهى الأمر، لا تزيد على هذا وإلا يكون الزيادة على هذا دخول في الجدل.

بيّنا الجدل الذي يكون بالحق، بقي الجدل الذي هو من علامات النفاق، سنضع ثلاث صفات أساسية عند الذي يجادل الجدل الذي يعتبر كبيرة:

الصفة الأولى: أنّه حال مجادلته لا يذكر إلا الانتصار لنفسه، ليس في قلبه وقت الكلام إلا الانتصار لنفسه فقط، لا يفكر في حق ولا باطل، لئلا نزكي أنفسنا كلنا ذاك الرجل! حينما نريد أن نناقش أحداً لو لم يكن هناك تقوى سيكون أهمّ شيء عندنا أن يكون رأينا هو الصائب، والناس تختلف على أمور تافهة لا قيمة لها! وينتقلون فوراً من كونه جدال إلى كونه مخاصمة وبهذا يكونون فتحوا باب الكبيرة على أنفسهم، بهذا يكون الإنسان لا يقصد من الجدل إلا نصرة نفسه.

الصفة الثانية: أن يكون الإنسان حال جداله غير متأكد من صحة ما يقول أو عدم صحته، ولا يبالي لذلك! يفكر فقط في نصرة نفسه وحينما يسمع من الآخرين لا يفكر في أن يراجع نفسه، هل قوله صحيح أو غير صحيح، لا يفكر في أن يراجع نفسه فقد يكون مخطئًا، لا يفكر إلا أن ينصر قوله أكثر وممكن لأجل نصرة قوله أن يأتي بالأكاذيب. لا يهمه أن تكون المعلومة صحيحة أو غير صحيحة، كل تفكيره أنه ما دام تبني الفكرة فهو صائب وهذا نتيجة النقطة الأولى؛ أنه ينصر نفسه أيًا كان الموضوع تافه أو يستحق أو لا يستحق، أيًا كان! كأن الإنسان يقول: "أي شيء أتبناه تسمع كلامي!" لذا نجد مفاوضات تافهة لكنها تصبح كبيرة، مثلا اثنان كل منهما يملك جوالًا من شركة مختلفة، فيقول أحدهما للآخر: "جوالي أفضل من جوالك!"، كلام تافه، أنت لست صاحب الشركة، بل مستعمل من المستعملين وغداً تشتري غيره لعيوب فيه، لكنه لا يفكر في نفس القطعة، يفكر في نفسه واختياره، "أنا اخترت هذا"، إذا يجب أن يكون اختياري عند الجميع صائبًا وهو أفضل اختيار، لذا يمكن أن تكون على الأشياء التافهة مفاوضات!

ونبقى نقول: "الأمر لا يستحق أن تفعلوا هذا الفعل!" أصبحت أطفه الأمور يمكن أن يدخل الإنسان فيها في جدال ومخاصمات.

الصفة الثالثة: في هذا المجادل أن نفسه تحقد على المجادل، من يجادله يصبح عدواً له، سواءً أرشده للحق أو بين له، لا يهمله، المهم: ألا يكذبه ولا يخطئه، القضية كلها تدور حول النفس، كل الأزمة في النفس. هذه النفس كلما زاد الناس دخولاً في الدنيوية وحرصاً على الروح التنافسية كلما فسدت! كلما أشعلوا نار التنافس بين الناس كلما صارت هذه الكبائر أقرب إلى الناس من الصلاح والإيمان؛ لأنه طوال الوقت يتنافس ليكون أفضل، فإذا ما استطاع الدخول في ميدان التنافس لأمر عند الناس، يمكن أن يدخل في التنافس بكثرة الجدل! بحيث أنه لا يجلس في مجلس إلا ليُسكت الناس كلهم! وبهذا يشعر أنه رد للاعتبار، بمعنى: "أنتم تنافستم وصرتم أحسن مني في ملابسكم ومجوهراتكم وسياراتكم، أنا أدخل معكم المنافسة من باب أنني أسكتكم، أتكلم ولا تتكلمون!" فإشعال نار التنافسية في المجتمع سبب دخول مثل هذه الكبائر.

هذه الثلاثة أمور تسبب للإنسان حينما يجادل أن يدخل في هذه الكبيرة؛ ولذلك الله تعالى في الآية قال عنه: (وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) بمعنى: لا يترك فرصة إلا وهو يخاصم.

هذه الصفات إذا استحكمت في الإنسان ستكون بوابة يفتح بها على نفسه -الله يعيذنا- باب النفاق الأكبر. إذا وجدت نفسك لا تميل إلى الخصومة ولا محبة لحضور حتى مجالس الخصومة وتزعج منها جدًا، وترى أنها تذهب المحبة والألفة بيننا -إن شاء الله- تكون هذه علامة إيمان. من يكره الخصومة ولا يحب أن يدخل فيها ولا يدخل جوها يكون عكس المنافق الذي يحب أن يظهر نفسه ويحب طوال الوقت أن يكون منتصرًا على غيره، ونحن نلاحظ أن هذا الأمر قريب للفطرة التي تميل إلى عدم الخصومات وعدم الجدل. لكن غير الفطرة السوية، من في قلبه مرض تجده يحب أن يشعل نار الجدل حول كل شيء. إذا ابتليت بمن يجادل، يريد أن يتكلم ويجادل، يطرح السؤال مائة مرة وتكون أجبته على السؤال ويعود لطرحه، ويكون العلماء كلهم قالوا الحكم فيه وتكون المسألة في غاية المعرفة، لكنه يسأل

ليستفرك ويجادل، قل له: "اسأل العلماء، أو اكتب في محرك البحث، أمّا أنا فليس عندي علم!" يقول: "ما رأيك؟" قل: "لا رأي لي"، وكلّما دخل في المسألة اهرب، هذا حل لو عرفت صفة الشخص التي تظهر من تجربة أو اثنتين؛ صفته يريد أن يكون سيد الموقف، ولو قلت: "يمينًا" سيقول: "شمالًا" والعكس! افهم أنّك ابتليت به.

بقي أن نطهر نفوسنا من هذه الأزمة العظيمة، نريد أن نعرف ماذا قال الله عن المجادل وماذا قال الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- حتّى نحذر ولا نبتلّى. يمكن أن يكون الإنسان بعيدًا عن الخصومة ولا يحبها بفطرته وطبيعته لكن يصاحب مخاصمين فيُعدى منهم، الخصومة واللجاج في الخصومة يمكن أن تكون عدوى، يضعف إيمان العبد ويصاحب أناس كثيرون الخصومة، فيُعدى منهم، كأنّه إنسان كانت صحته جيدة، تخيل صحة القلب مثل صحة البدن، وهناك أمراض لا تتأثر بها لأنّ صحتك جيدة لكن حينما تضعف صحتك ستلتقط المرض، يكون إيمانك قويًا وأناس كثير حولك يجادلون، فلا تتأثر بهم، لكن ضعف إيمانك وصاحبت أهل الجدل

فتصبح مجادلًا. الجدل من الأمراض المعدية، خلق
يعدي الإنسان بسبب ضعف الإيمان، وهذا أمر واضح
ومعروف وواقعي يعيشه الناس.

قال: وقول الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّامُ) مرّ معنا أن
الآية الأولى في سورة البقرة في الكلام عن المنافقين.
أول الآية (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)
كلامه جميل ويُعجب السامعين، يمكن أن يكون فصيحًا،
ويمكن أن يكون عنده قوة عرض وبيان أو جرأة، أو
يتكلم بطريقة جميلة، وليس هذا فقط، بل (وَيُشْهِدُ اللَّهُ
عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ)، وهذه الجملة من الآية تُفهم بفهمين:

- أن يكون نفس المتكلم هذا الذي يُعجبك قوله،
يُشهد الله على ما في قلبه، يعني يقول: "أشهد الله
أن كل كلمة أقولها حقّ وأنا أحبّ الإيمان وأحبّ
نصرة الحق، وأي كلام أقوله لا أقصد به إلا نصرة
الحق."

- أو تكون الآية خبرًا عن الله أن الله يَشهد على
ما في قلبه.

نأخذ المعنى الأوّل، أن هذا المنافق يعجبك قوله في الحياة الدّنيا، يقول كلامًا في الإيمان والتّقوى جميلًا، ولا يتوقف عند هذا، وإنّما يقول: "الله يشهد على أني أحبّ الإيمان وأنصر الإيمان وأستعمل قواي في نشر الحق"، ثمّ يقرر الله عنه هذا الخبر المهمّ: (وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)، بمعنى: ستظهر حقيقته إذا دخلت معه في خصومة. ما دمت طوال الوقت تسير معه ولا تخالفه في الكلام فلا أحسن منه، لكن بمجرد أن تختلف معه اختلافًا بسيطًا على شأن يتّصل بالدّنيا أو بالآخرة تظهر الخصومة، نفترض أنّنا زملاء في مدرسة تحفيظ، المفترض أن تكون صحبتنا صحبة خير، وكلّنا نرشد بعضنا، لكن تجد دوره دائمًا دور الكامل الناصح الذي يقول الكلام وأنت تسمع، ثمّ رأيت عليه ما لا يلائم وعرفت عنه ما لا يناسب، أوّل ما تعرف عنه شيئًا لا يناسب يصبح مثل النار يحترق ويحرقك معه! لأنّ صورته يجب أن تكون كاملة. أو نفترض أني ما عرفت عنه شيئًا، إنّما رأيت شيئًا فمن باب التعاون على البر والتّقوى، تنصحه، وكان سابقًا يقول: "أنا أحبّ النصيحة"، كلام جميل! وحين تنصحه تصبح العدو! لا يسمع لك نصحًا فيبدأ

يجادل ويخاصم، وحينما يكون عنده علم تكون المصيبة أطمّ! لأنّه يُخرج كلامًا أنت تعجز عنه! المشكلة الكبيرة والجريمة العظيمة لو كان هذا في محيط أهل الإيمان. مثلاً هذا معروف أنّه من زمان له في الإيمان والعلم، ويقول: "ثنيت الركب عند الشيخ الفلاني!" حينما يخرج لعامة الناس على أنّه درس عند فلان وعلان وتعلم، ينبهرون بأسلوبه وقوّته وشكيمته فيطيعوه، وهو يبيعهم الكلام! ويقول: "النّصيحة شيء مهم وأنا أنصحكم وأنتم تنصحونني!" ثمّ ينصحونه فيتحول إلى عدو لهم، يكونون بدؤوا في الاستقامة وبسببه يرتدون مسافات ويقول الكثير من الناس الذين يكونون مرّوا بهذه الأمور: "إن الاستقامة مجرّد كلام!" ، ويقولون: "رأينا أناسًا وعشنا معهم وعرفنا كيف يبيعون الكلام وحينما تأتي المواقف عليهم يظهر عدم استقامتهم!" ، هذا ليس عذراً، وقد مرّت معنا القاعدة كثيراً: "افصل بين الحقيقة وحامل الحقيقة، وبين حامل الدّين والدّين" أنت اتبع الرّسول -صلى الله عليه وسلّم-، هؤلاء أوصلوا لك الحق فلا تعتبرهم هم الدّين ولا تترد عن الدّين لرؤيتك مثل هؤلاء، لكن للأسف أن مثل هؤلاء كثير في هذا

الزمن خصوصاً أنّهم يتمسحون بأهل العلم، تجد أحدهم يقول: "أنا درست في هذه الجامعة، وأصبحت عندي شهادات"، وأصبح الناس الآن يغرمهم مثل هذا ويرون أي شهادة وأي علم كأنّها البراءة من النفاق، والنبي صلى الله عليه وسلم- قال: «**أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ اللِّسَانِ**»⁽⁴⁾ يعني علمه في لسانه، كلام وفصاحة ولا حقائق في القلب، ويظهر هذا بمجرد أن تخالفه الرأي، أو تنصحه، تجده أصبح عدواً. أحياناً تكون لا تتكلّم بأسلوب صحيح عند النصّح، فتستفزه، فيظهر عليه الاستفزاز، إن كان ممن هو ألدّ الخصام؛ فلن يصبر، ينفجر عليك، وإن كان من أهل الإيمان يظهر عليه التأثير لأنّ الكلمة الجارحة مؤلمة، لكنّه يتصبر ليخرج من حظّ نفسه لأنّ هناك ألماً من الكلام، لكن المؤمن يتصبر، والمنافق يتحول فيصبح عدواً يهاجم وهو ألدّ الخصام. كيف يتصرّف حينما يكون هذا شأنه؟ إذا تولى عنك بعد أن يقول الكلام الجميل (**سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا**) بالمعاصي بعد الكلام الجميل؛ لأن الأرض لا تُعمر إلّا بالإيمان والطاعة، ما يُعمر

⁽⁴⁾ أخرجه أحمد (143).

الأرض هو الإيمان والطاعة وما يفسدها هو المعاصي؛
لذا هذا الشخص الذي يتكلم بلسانه ويتمدح في نفسه
حينما يخلو بنفسه أو بمحارم الله ينتهكها فيكون تولى
وسعى في الأرض فسادًا، المعصية أعظم الفساد.

عرفنا صفته وأن الله -عز وجل- أخبر عن هؤلاء
أنهم رؤوس للنفاق، إذا قابل أهل الإيمان كان من أظهر
الناس إيمانًا، وإذا خلا وحده وكان متمكنًا من المحارم
وقع فيما حرم الله، (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ)
والفساد هو المعصية.

في سورة البقرة أمام هذه الشخصية نجد شخصية
عكسها تمامًا، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) يبيع نفسه
ليرضى الله، لا أن يدافع عنها ويعليها ويخاصم لأجلها،
الفارق بينهم كالفارق بين السماء والأرض: شخص يبيع
كلامًا ليعلو على الناس وآخر مستعد لأن يبيع نفسه
لأجل مرضاة الله.

(الَّذُ الْخِصَامُ)، يعني شديد الخصومة، عرفنا بهذا أن هذه صفة المنافق يكذب ويزور الحق ولا يستقيم عليه.

(الَّذُ الْخِصَامُ)، المقصود أنه أعوجهم في خصامه، شديد الاعوجاج عن الحق، هذا أكثرهم اعوجاجاً عن الحق في حال خصومته، صفاته: الكذب وتزوير الحقائق، يعني يعطي جزء منها ويخفي الجزء الثاني.

التزوير معروف، يأتي بأشياء تشبه الحقيقة لتتصره هو ولكنها ليست الحقيقة.

الكذب الصريح تزويد الكلام.

ومن صفاته أيضاً: الافتراء، لا يمنعه أي شيء من أن يفترى على أي أحد، يُلصق التهم بأي أحد، يكذب ويزور ويفترى، لا مشكلة عنده في مثل هذا.

ننتقل إلى النص الثاني:

قال: عن عائشة -رضي الله عنها- مرفوعاً: « إِنَّ أَبْغَضَ الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَذُ الْخَصِمُ. »

هذا الحديث فيه أن الله يبغض بعض الخلق الذين لهم هذه الصفات، و(الرَّجَالِ) هنا يقصد بها: الرجال

والنساء، نثبت هنا إن الله يبغض بعض الخلق بسبب
صفة من الصفات، ونلاحظ أن أبغض صيغة تفضيل،
يعني أكثر الرجال الذين يبغضهم الله الألد الخصم،
يعني: شديد المراء، الذي يبقى يحاج صاحبه ويطعن
عليه، ويُخرج من كلامه الخل للتحقير وإظهار المزيّة،
يحقر الثاني ويظهر مزيته هو، ويمكن أن يكون في حال
الخصومة ابتداءً أو ردًّا.

واليوم أصبحت ميادين الخصومة أوسع بكثير من
الزمن السابق، المجموعات التي يكونها الناس في
وسائل التواصل أصبحت أحد ميادين الخصومة، يرسل
أحد شيئاً، والثاني يُظهر أنه أخطأ في هذا الإرسال ولم
يرد حقاً. وكلّ هذا ليس لإظهار الحق إنّما لتحقير الآخر
وإظهار العلو عليه. غير مواقع التواصل من الزمن
الطويل كلّ يسب الآخر ويحقر الآخر، حتّى وصلوا إلى
كبار العلماء! فهذا يبدأ الخصومة وهذا يرد عليه ويبقى
الناس مشغولين بالخصومات، وليُعلم أن هذا من وسائل
العدو علينا، تشتيت الناس في الخصومات. الأعداء
يتحسسون من الذي يحبّ أن ينصر نفسه، يبحث عنه،
ومن أشد أعدائنا: الشيطان وأعوانه، فيبتدئ هؤلاء الذين

يحبّون نصرة أنفسهم بالطعن والكلام، الآخرين يحرصهم شياطين الإنس والجن على الرد ويتشتت المجتمع ويصبح أحزابًا، إذا تقابلوا في المسجد لا يصلون معًا، إذا كان هذا إمام الحزب الأوّل، لا يصلي الحزب الثّاني معه، ولذا يمكن أن يبنوا مسجدًا ضِرارًا، هؤلاء يبنون مسجدًا وهؤلاء يبنون مسجدًا! وهذا ما يعيشه العالم الإسلامي كلّهُ، ما نرى أنّنا يمكن أن نعيشه في مواقفنا العائلية، هذا كثير منه يحدث عن طريق أدوات التواصل، وأوسع من هذا يعيشه الناس في كلّ العالم الإسلامي بحيث أنّهم في نهاية الأمر يصلون إلى تحزيب المجتمع الإسلامي فيصبح المجتمع الإسلامي مجموعة أحزاب، فإن وصلوا أن يجعلوا المجتمع الإسلامي مجموعة أحزاب يكونون وصلوا إلى تسميم قلب المجتمع الإسلامي؛ لأن الله -عزّ وجلّ- قال: **(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)** (5) إذا اعتصمتم بحل الله جميعًا وما تفرقتم فهذه قوّتكم، لكن أكثر ما يفسد العلام الإسلامي أن يتحول إلى أحزاب، فلنكن حذرين، في بيوتنا أبناء وبنات وفي عوائلنا شباب وشابات فلا

(5) آل عمران: 103.

تسمحوا للعائلة أن تفرق إلى أحزاب، ولا تسمحوا لأبنائكم في البيت أن يفرقوا إلى أحزاب، فلا أسوأ من الحزبية على المجتمعات الإسلامية، على الأسرة النواة والأسرة الممتدة الكبيرة والحي والمجتمع ومدرستك التي تعيش بها، **ما سبب الكلام عن الحزبية؟** الخصومات أداة الحزبية، هؤلاء يختصمون وهؤلاء يختصمون، وهؤلاء يكونون حزباً وهؤلاء يكونون حزباً؛ ويتحولون أحزاباً وتصير الفرقة بينهم، وهذا ما يريده الشيطان، وهذا كما تبين قلب تسميم العالم الإسلامي، أعظم شيئاً يسممون به العالم الإسلامي: أن يفرق من الأسرة النواة إلى الأسرة الممتدة إلى أسرة الحي، للمسلمين عموماً، إلى مجموعة أحزاب. هناك زمن كانت الأحزاب عبارة عن الشافعية تخاصم الحنابلة، والحنابلة تخاصم الأحناف، والأحناف يخاصمون المالكية، ويصبح هذا المسجد للأحناف ولا يسمحون للأحزاب الأخرى بالصلاة فيه! زال هذا وانتهى، وهذا المعنى كان موجوداً في المسجد الحرام في أواخر عهد الملك سعود، أبواب معنية لكل من الأربعة مذاهب، كل يصلي مع إمامه، ثم جمعوا على

إمام واحد في آخر حياة الملك سعود. الآن الأحزاب لهم معانٍ أخرى، وما بينهم هو **الخصومة** التي قد تكون أحيانًا شخصية، يكون هذا صاحب هذا فانشق عليه، وتأتي الفرق ومبدؤها: الأسرة والبيت وقبول المجتمع لكثرة المجادلات، وأشعر أن هذا ابني فاهم إذا كان كثير الجدل! وهذه ابنتك تمدحينا لأنها تأتي بحقها، وتظل تمدحها ولا تعرف أنها تربي فيها خصلة النفاق، يؤس الشيطان أن يُعبد في جزيرة العرب وبقي عليه التحريش، وهذا ما يأتي بالخصومة وهناك من يستفيد من الخصومة، والناس يستفيدون من الأحزاب كثيرًا وهناك من يحرك هذه الأحزاب.

بهذا عرفنا أن أبغض الرجال إلى الله: **الألد الخصم**، **الألد**: شديد الخصومة، وننتقل إلى الدليل الأخير:

قال: وللترمذي عن ابن عباس مرفوعًا: «**كَفَى بِكَ إِثْمًا أَنْ لَا تَزَالَ مُخَاصِمًا**».

هذا الحديث مرفوع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يخاطبنا كلنا أنه "كفى بك إثمًا أن تبقى تطلب الخصومات، لا تزال مخاصمًا"، معناه: إذا انتهيت من

الخصومة مع فلان انتقلت إلى الخصومة مع فلان فتجد نفسك متنقلاً بين الخصومات، تنتهي من خصومة هذا وتنتقل إلى خصومة هذا، بمعنى: أن الخصومة أصبحت كالصفة المميزة لك! كيف تأتي في مجتمعنا؟ يقول الإنسان: "لن أسكت له، وقلت وعدت وفعلت!"، وكلما ذهب إلى مكان يشعر أنه بهذا قوي والناس يخافون من الدخول معه في الخصومة فيبقى يخاصم حتى أن الناس يهربون من الكلام معه، فـ (كَفَى بِكَ إِثْمًا) أي أن هذا باب من أعظم أبواب الآثام، أن تكون مخاصماً، تقول: "أريد أن أبين الحق!"، بيان الحق شيء مختلف عن الخصومة، الخصومة والجدال صاحبه له هذه الصفات:

- يكون ناصراً لنفسه بغض النظر عن الموضوع.

- يكون غير معتنٍ بهل هذا حق أو باطل، وأثر هذه الخصومة هي الحقد.

ونرى صفة مهمّة أيضاً، هذا الحديث يوصلنا إلى صفة وهي أن الخصومة تصبح كالمزاولة، كالمهنة يزاولها، دائم العمل بها. تقول له: "لا يصح كذا"، أو

"ما عندي ما أعطيك"، يبقى يخاصم ويقول: "إن هذا من حقوقنا وعليكم أن تفعلوا لنا!" خرج من هذا المكان إلى المكان الثاني بنفس الطريقة، يبقى يخاصم على كل شأن يمرّ عليه، تصبح كالمهنة التي يزاولها، تصبح قضيته وموضوعه، لا زال بهذه الطريقة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كَفَى بِكَ إِثْمًا» إذا كانت هذه هي مهنتك التي تزاولها وأنت كثير الخصومة، تكون بذلك امتلأت آثامًا، احسب كم شخصًا تخاصمت معه، إن وجدت أنك تخاصمت مع الكثير تكون هذه مزاولة لمهنة! أو أن لك أحدًا معينًا لا تزال تخاصمه، صار لها معنيان:

(لا تَزَالُ مُخَاصِمًا): صفتك أنك لا تزال تزاول هذه كأنها مهنة، فكلّ من لاقيت خاصمت!

أو (لا تَزَالُ مُخَاصِمًا): لا تزال في حياتك متسلطًا على أناس معينين ولا تزال تخاصم فيهم، مثلاً ربنا ابتلاك بأخت وأخ وجارة، الجار يمكن أن نتحول عنه لكن القرابة أو أم الزوج أو أخت الزوج أو الزوج بنفسه...! طوال الحياة موضوعنا أننا نتخاصم مع هذا

وهذا، نحضر طوال السنّة في العيد فنتخاصم في هذا، وفي عيد الحج نتخاصم في هذا، في الإجازة النصفية نتخاصم في هذا! أربع أو خمس مرات في السنّة نكون تخاصمنا مع أشخاص معينين.

فإما أنّك متنقل بين الشّخصيّات التي تخاصم فيها أو أن عندك شخص تستلمه، وهذا الذي تتسلط عليه أو هو يتسلط عليك. الخصومة قريبة منّا، و(كَفَى بِكَ إِثْمًا) يعني لا سلام ولا هدوء، قبل عشر سنوات في بداية الحياة كانت عادتك أن تخاصم، لكن ها أنت تكبر وتتعلم وتستقبل آخرتك، المفترض أن تتوب إلى الله ولا تجعل النّاس يستفزونك إن كانوا هم من يستفزونك، هذا إن لم تكن أنت من يستفزههم! كأنّه يقال كفاك من الآثام أن تكون مخاصمًا. بهذا اتضح لنا باب الجدل، أن يبذل الإنسان جهده أن ينصر نفسه ولا يقبل إلّا أن يكون منتصرًا. نقرأ الباب التالي:

باب (من هابه النّاس خوفًا من لسانه)

مناسب للباب السّابق، الباب السّابق يناقش حال كثير الجدل والخصومة، والأثر: أنّه أصبح يشعر أنّه القوي

الذي لا يستطيع الناس فتح أفواههم حينما يرونه؛ فهابه الناس خوفاً من لسانه، يتصورون أنهم لو قالوا كلمة فسيعطيهم ما يؤلمهم ويخرجهم أمام الناس! فنحن نتكلم عن شخص من كثرة الخصومة وحدة اللسان على الناس صار الناس لا يريدون الكلام معه ويتجنبونه لأنهم يعرفون أنه سيسلقهم بلسانه وأنه سيقول كلاماً حاداً يجرح أفئدتهم فلا يتكلمون معه، حينما لا يكون هناك إيمان غالباً الناس يشعرون أن مثل هذه قوة! يقول: "أنا في المدرسة أو العمل لا أحد يستطيع أن يكلمني أو يأخذ مني شيئاً، حتى مديري المباشر أو غيره!" أو يكون مستأجراً في مكان، صاحب البيت له حق لكن هذا يعطيه من الكلام المسمم فيصبح صاحب البيت خائفاً؛ فيُكفى شره بالألا يأخذ منه حقه! وهذا موجود، الناس يتنازلون عن حقوقهم ليُكفوا الشر، وهو يرى أنه منتصرٌ ويرى أن لا أحد يستطيع أن يقترب منه! وهذا يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، عظمة من العظام عند رب العالمين، وانظر لهذا وانظر للنبي -صلى الله عليه وسلم- على جلاله قدره ومكانته عند ربه، كيف كان يتبسط مع المرأة، ويتبسط مع الفقير

والمحتاج ويأتي إلى الرجل في السوق فيضمه من خلفه ويمارحه ويقول: «**مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟** فقال يا رسول الله إِنْ تَجِدَنِي كاسِدًا فقال النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **لَكِنَّكَ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ**»⁽⁶⁾

ويمارح المرأة ويقول لها: «**يَا أُمَّ فَلَانٍ إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا عَجُوزٌ**»⁽⁷⁾ فتبكي المرأة فيبين لها -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن المقصود أنها ستكون على أشب ما تكون.

انظر إلى هذا النموذج العالي وهؤلاء الذين هم في قلب النفاق يجدون أنهم وصلوا إلى المهابة والمكانة التي يريدونها، أن لا أحد يكلمهم خوفًا من لسانهم! مع ضعف الإيمان وانتشار النفاق صارت هذه المسألة كثيرة جدًا وصار الناس يشعرون أنها من صفات القوة، هذا غير أنهم يدفعون مالا في دورات ليعلموهم هذا الكلام! طبعًا هم لن يقولوا لهم: "تطاولوا على الناس" لكن يجعلون من صفات الشخصية المميزة أن تكون حادة، بمعنى: أن لا تعطي أحدًا فرصة أن يتعدى عليك، وحينما يكون

⁽⁶⁾ أخرجه أحمد (12648).

⁽⁷⁾ أخرجه الترمذي في (الشمائل) (240).

عند النَّاس الاستعداد في مثل هذه الأمور لا ينتظر أن ينصحه أحد، في مثل هذه الحال يعطي من اللسان الحاد حتّى يجرح من حوله ولا يراعي، لكن نحن نأتي بصفات معينة لأنّ هناك أناسًا ابتلوا بأن ما عندهم منطوق، هم لا يقصدون إيذاء النَّاس. فعلينا أن نفكر في أنفسنا: هل عندنا منطق أو لا؟ ومن ليس عنده منطق، فعليه أن لا يتكلّم في المجالس لأنّه قد يقول كلمة تجرح من أمامه ولا يشعر، فإذا اشتكى منك أكثر من واحد فاعرف أن هذا ابتلاء، فاعرف كيف تعالجه.

إذا نحن عندنا شخصان:

الأول: يعتمد أن يؤلم النَّاس ليخافوا منه فيهابوه بسبب لسانه.

والثاني: لا يعتمد تجريحهم إنّما فقد الأسلوب، ما أعطي منطقًا لطيفًا، وأحيانًا يكون ذا منطق لطيف لكن لا يفهمه النَّاس.

وهناك من أعطي خفة في ظله والنَّاس لا تتحمّله، فيُفسد، وهذا نقول له: "اللسان مشكلة كبيرة، فلا يستهان به"، والنبيّ -صلى الله عليه وسلم- قال لمعاذ: «وَهَلْ

يَكْبُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»⁽⁸⁾
فيجب أن يكون في ذهننا أن هذه الأداة نشكرها بأن
نمنعها من أذية الناس، أمّا المتقصد فدخل في باب
الكبائر وغير المتقصد فيُنصح ليحسن وضعه، ولا يوجد
مثل الصمت، لكن المشكلة أن بعض الناس يكون ممن
صمت دهرًا فنطق كفرًا! نقرأ المتن، قال:

وقول الله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ)

عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- قال: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، مَنْ وَدَّعَهُ -أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ- اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».

هذا الباب سيناقش هذه الحالة: أن العبد يكون له لسان
فاحش، فيستعمله في الغمز والهمز. وهذا يجب أن يكون
شغوفًا بذلك، فهذا ليس نتيجة خطأ، بل استمتاع، يستمتع
بهذا الأمر، والشغف به أن يرى في نفسه استمتاعًا
بالحمز واللمز وهذا سنجدّه واضحًا حينما نتناقش فيما
يسمى بالنكات والمزاح.

اللقاء الثاني عشر

⁽⁸⁾ أخرجه ابن أبي شيبة (27029).

1 ربيع الآخر 1441

تابع باب من هابه الناس خوفاً من لسانه

باب البذاء والفحش

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على نبينا
محّمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكلّنا على الله. نبدأ في مناقشة هذا الموضوع
المهمّ، وهو موضوع (الكبائر) ونذكر أنفسنا أن مناقشتنا
لهذا الموضوع ليست لمجرّد أن نعرف ونسمع ونفهم،
إنّما لنخاف ونحذر، فإن عبادة الله - عزّ وجلّ - فيها ثلاثة
مضامين:

1- معرفة الأوامر والقيام بها.

2- معرفة النواهي والابتعاد عنها.

3- سماع الأخبار وتصديقها واليقين بها.

ومن بين هذه المضامين سماع الأخبار عن الكبائر،
ويتضمن هذا: خوفك من الوقوع فيها والعزم على ألا
تغشاها ولا تكون من أهلها. لكن لا تسمع لمجرّد السماع

ولكن اسمع وأنت طالب من ربّ العالمين أن يحفظك من هذا، ألا تكون ممن يقع في مثل هذه الآثام؛ ولذا يجب استحضار النّية حال السماع، يجب أن تستحضر نيّتك وأنت تسمع لأيّ شأن، في كلّ موضوع يجب أن يكون لك مقصد، والعلم كلّه خير وبركة، فإذا سمعت الأخبار القرآنيّة وسمعت عن موسى وعيسى وآدم وإبراهيم -عليهم السّلام- فهذا مقصد تصديق الأخبار واليقين بها، وإذا سمعت عن النواهي فهذا مقصد معرفة المحرمات وعدم الوقوع فيها. فكلّ شيء له مقصده ونيّته، والإنسان تُضاعف له الأجور على قدر نيّته حال العمل، فوقت العمل يجب أن تكون نيّتك موجودة؛ لذلك لا بدّ أن نبقى نناجي ربّ العالمين ونطلب منه أن يزيدنا علمًا وأن يكون هذا العلم سببًا لفوزنا ورفعتنا عنده -سبحانه وتعالى- وأن يكون سببًا لعصمتنا من الذّنوب فهو سبحانه الذي يعصم العباد من الزلل، نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ويحفظنا من الوقوع في المعاصي ويتوب علينا فيما مضى مما وقعنا فيه! وكلّ ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون.

في هذه الفترة نحن نتدارس كبائر الذنوب وصلنا إلى
(كبائر اللسان)، وكلّ مرّة نبتدئ بقول ذلك نقول: "إن
اللسان في أصله نعمة الإنسان التي تميزه، والكلام هو
الشيء المميز بين الإنسان وبين بقية البهائم"، البهائم لها
لغة تخصّها لكن لا يوجد للبهائم بيان ولا فصاحة ولا
بلوغ للمعاني العالية، إنّما لغة يتخاطبون بها ليفهموا ما
يعيشون كما في سورة النمل حينما تكلمت النملة وبهذا
علم أن لها لغة تخصّها، لكن ليس هذا هو التميز.
الإنسان العاقل له عقل ويعبر عما في وجدانه من خلال
الكلام، الكلام نعمة عظيمة أهمّ شيء ألاّ يتحول فيصبح
نقمة على الإنسان، القادر على الكلام قد أنعم عليه،
المفترض أن القدرة على الكلام يستفيد منها لتقربه إلى
ربّ العالمين، أمّا القدرة على الفصاحة فهي مسألة
أعلى، قدرة الإنسان على الكلام هذا مشترك بين
الناطقين، أمّا قدرته على الفصاحة فهي عطية أعلى من
العطية الأولى، القدرة على الفصاحة عطية من ربّ
العالمين، لكن استخدمها فيما ينفعك عند ربّ العالمين،
لا تتفصح لتبدي للناس مكانتك، ولا تتفصح لتبدي

الباطل ولا تخرج الفصاحة مخرجًا استهزائيًا كما سيأتينا اليوم.

اليوم نكمل الباب الذي ابتدأناه المرّة الماضية

باب (من هابه النّاس خوفًا من لسانه)

هذه أحد الكبائر، هذا الإنسان لو كان النّاس حينما يتعاملون معه يخافون أن يكلمهم أو يكلمونه لأنّ لسانه سليط، إذا ابتدؤوه بالكلام يرد عليهم ردًا جارحًا مؤلمًا، وقد يكون ردًا استهزائيًا إما بالمنطوق وإما بالإشارة كما سيتبيّن في الآية، فإذا كان الإنسان في مجتمعه يُخاف منه؛ لأنّه سليط اللّسان، يهاب النّاس أن يكلموه لأنّه سليط اللّسان، فهذا صاحبّ كبيرة، يصبح مرتكبًا لكبيرة سلاطة اللّسان التي أدت إلى أن يهابه النّاس، النّاس يقع منهم أن يهابوا النّاس، لكن هناك أسباب كثيرة، فيما وصف الله عيسى -عليه السّلام- أن الله تعالى جعله (وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)⁽⁹⁾، ومن آثار الوجاهة: أن يهابه النّاس، حينما يدخل المكان تكون له هيبة، الهيبة بنفسها ليس فيها مشكلة لكن لماذا يهابونه؟ إذا كانوا

⁽⁹⁾ آل عمران: 45.

يهابونه لأنّ لسانه سليط، فقد ارتكب إثماً، ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، يصبح هذا الإنسان غير مأمون الجانب، عنده فصاحة وقوة لكنّه غير مأمون الجانب، يمكن أن تكون في هدوء من شأنك، فيعطيك أحدهم كلمة فتسود الدّنيا في وجهك بسبب هذه الكلمة! ولا يترك أحداً، كلّ من يتمكن منه، يفعل معه هذا الفعل! سنرى الآن في أيّ أوضاع يقول وما الدافع إلى أن يقول؛ لنتصوّر من هذا الذي ارتكب هذه الكبيرة، لكن اسم الباب واضح تماماً، يهابه النّاس خوفاً من سلاطة لسانه، هذا صاحب لسان حاد وسيتبيّن لنا هذا بقراءة الآيات. نبدأ بأوّل نصّ أورده الشيخ:

وقول الله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ)

هذه الآية معروفة في سورة الهمزة، وهي تصف إنساناً مبغوضاً عند الله، كما سيأتي بعد ذلك، ونرى صفاته، الصّفة التي هي موضوعنا في الآية الأولى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ) وهناك صفتان أعطيتا لهذا الإنسان: (هُمَزَةٍ) و (لُّمَزَةٍ)، وسيأتينا الفرق بين الهمز واللمز، هناك أقوال كثيرة في الهمز واللمز، وأحياناً تكون عند المفسرين

بالتقابل أن الهمز يكون باللسان واللمز يكون بالحركة، بحركة العين أو الفم، وهذا المستقر عليه الكلام، لكن هناك ما هو أهم من هذا وهو: ما الذي يدفع الإنسان لمثل هذا؟

هناك نوعان من الدوافع التي تدفع إلى الهمز واللمز، وقد تكون مجتمعة وقد تكون متفرقة:

الدافع الأول: يمكن أن يكون الدافع لذلك الحقد والحسد الذي يسبب أن الإنسان لا يجد منفذاً على الإنسان الذي أمامه فيستخدم أسلوب الهمز واللمز لينفث عن الحقد والحسد الذي داخل نفسه.

الدافع الثاني: مجرد إضحاك الناس، يستخدم الاستهزاء بهم.

الدافع الأول يأتي من الأحقاد وهو معروف، أن الإنسان لا يجد أمامه قدرة على تنفيس حسده أو حقه فيستعمل هذا الأسلوب، المشكلة في الثاني، الإنسان يرى نفسه أنه لبق وأنه خفيف الظل! وأصبنا في مقتل بسبب أن النصوص غير واضحة في ذهن! الناس يقدمون برامج ليقلدوا فلان وعلان ويلمزوا ويغمزوا

لمجرّد -كما يعبرون عنه- أن هذا من الفكاهة وإدخال السرور في تقليد الناس وفي عمل مقلب فيهم! كلّ هذا يدخل تحت هذه الكبيرة، في كون أن الإنسان يكون في حال يتكلّم معك وهو يستأمنك، وأنت تحوّل هذا الإنسان لمسخ يضحك عليه الناس!

فـ (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) أخرجوا في همزهم ولمزهم حقدهم وحسدهم، هذا نوع، أو حولوا الذي يغمزونه ويلمزونه إلى مستهزئ به.

و (وَيْلٌ) كلمة عظيمة قيل في تفسيرها: "إن الوعيد الشديد على هذا الإنسان"، وقيل "إن له وادياً في النار يدخله بسبب هذه الفعلة"، لكن على كلّ حال، بقية الصّفات في السّورة تبين لنا من الذي يفعل هذا الفعل، سنسير مع المستهزئ ونترك الحاقد الحاسد.

هذا الشخص ما يشغل باله هو المال (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ) عنده مال مكنوز يعدّه ويعود من جديد، يستمتع بعدّ المال، نوصل الأولى بالثانية في واقعنا لنتصوّر، هذه البرامج التي فيها استهزاء وتحويل الإنسان إلى مسخ وفيها عدم احترام

للكرامة الإنسانية، وراؤها مصالح كثيرة وأموال وأناس تدفع وشركات إنتاج تنتج ومحطات تشتري! فصارت بالنسبة لهم مهنة يدخلون منها الأموال على أنفسهم وغير مهم كيف دخلت الأموال! هل فيها احترام للكرامة الإنسانية أو ما فيها احترام؟ ليست هذه المشكلة، أهم ما عنده المال، (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ) ليس عنده احترام للإنسان والكرامة الإنسانية ولا احترام لمن جعل الله له الاحترام من كبير وصغير ولا من جعل الله له الرحمة، أهم شيء أن يجمع ماله ويعدده.

هناك صلة قوية بين الحالتين، واقعياً الصلة واضحة بالنسبة لنا: أن هؤلاء الأقوام الذين يأخذون الناس استهزاء يتاجرون بالناس ويصلون من وراء الاستهزاء إلى أخذ أموال الناس.

نفس الشيء بالنسبة للحاقد الحاسد الذي يجمع أمواله ويعددها ويجد نفسه أقل من فلان وعلان، كيف يخرج ما في نفسه من حقد لأن فلان وعلان أفضل منه وأرصدتهم أحسن ووضعهم أحسن منه وذهبها أحسن منها؟! تغمزها وتلمزها.

فهمنا بهذا أن هناك نفسية معينة التي تفعل هذا الفعل، وسيتبين بعد ذلك أن الإنسان قوي الإيمان، لا يفعل ولا يقبل أن يستهزئ بأحد، ولا أن يتابع برنامج يُستهزأ فيه بالخلق! تعرفهم أو لا تعرفهم، هذه ليست القضية! ولذا حينما ننتقل من هذه النقطة نقول: **ما أصناف الناس الذين يستهزئ بهم؟** قد يكون أحد جالس معنا في المجلس، نعرفه ويعرفنا، أو يكون غائبًا، ليس شرطًا أن يكون موجودًا، قد يقع الهمز واللمز على الحاضر وبهذا تكون مصيبة عظيمة، أو على الغائب ويكون دخل في كبيرة أخرى وهي كبيرة الغيبة.

الكبيرة الأولى كون أنه يواجهه بهذه المسألة، ويكون فيها من احتقار المسلم ما فيها و «**كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ، دمه، وماله، وعرضه**»⁽¹⁰⁾ فبهذا يكون اقترب محرمًا عظيمًا. وفي خطبة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرامٌ**»⁽¹¹⁾ لو معك قلم رصاص وأتيت على بشرة زميلك وأذيته في بشرته تكون ارتكبت محرمًا؛ لأن أبشاركم عليكم حرام

⁽¹⁰⁾ أخرجه البخاري (6064).

⁽¹¹⁾ أخرجه مسلم (1679).

كما أن دماءكم عليكم حرام، ليس فقط حين نصل للدم، بل مسبقًا. وقد ورد في الحديث في صحيح البخاري أن النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نهى المسلم أن يمرّ في المسجد ونصل سهمه بارز، فإما يقبض على رأس السهم حتّى لا يؤذي أحدًا أو لا يمرّ به، فهذا يعني أننا محرمون على بعضنا تحريمًا عظيمًا، مجرد أن يكون الإنسان متعمدًا على الإنسان في غمزة أو لمزة أو كلمة، يريد الاستهزاء بغيره سواء كان السبب حقًا أو حسدًا أو استهزاءً أو عدم احترام للنّاس، في كلّ الأحوال كان حاضرًا أو غائبًا؛ فالنتيجة واحدة؛ يكون بهذا اقترف كبيرة من كبائر الذّنوب وهذه جريمة عظيمة، بمعنى: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ.»⁽¹²⁾

رمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينها من الصغائر، إذا اجتنبت الكبائر، الصغائر التي تكفّر بلا توبة، لكن الكبائر لا تكفّر إلّا إذا تبت، رمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة والعمرة إلى العمرة، كلّ هذه كفارة لما بينها

⁽¹²⁾ (أخرجه مسلم (233)).

بشرط: أن تجتنب الكبائر التي تحتاج إلى توبة؛ لذا نفكر فيمن غمزنا ومن لمزنا، وماذا فعلنا في حياتنا، وكلّما طال عمرنا نسينا ما فعلنا فيما مضى، فما لنا إلا التوبة العامة، وهذا من فوائد دراسة الكبائر: أننا حينما ندرس الكبيرة نطلب من ربّنا أن يعصمنا من الزلل ولا نقع فيها! لكن يجب التوبة على ما مضى، لا تقل: "أنا لم أغمز ولم ألمز، أنا لم أغتب ولم أكذب"! ما دمت ترى أنك ما تخطئ، فلا حل! هناك أناس شخصياتهم لا تأتي بالغمز واللمز لأنّهم يكونون محترمين جدًّا أو ضعفاء أو يكونون هم ضحية الهمز واللمز دائماً، فلا يأتي منهم الغمز، لكنك لا تعرف نفسك، قد يحصل منك هذا وأنت غافل، ولا مجال هنا عن الكيفية التي يحصل بها الهمز واللمز، أحياناً تكون هناك كيفيات لا توصف لكثرة ما تمرّ سريعاً، يدخل أحدهم من الباب وله هيئة معينة وكنا قد تكلمنا في بيتنا عن هذه الهيئة، وأتينا وجلسنا في مكان ودخلت إحداهن بالهيئة التي تكلمنا عنها فأشير لأحد بعيني -بعيني أقول لها انظري- فبهذا أكون دخلت في الكبيرة، هذا هو ما يسمى بالهمز واللمز. مجرد الإشارة بالعين أو بالفم أو بالوجه عموماً أو باليد، كلّه

يُقصد به التحقير فما لنا باب إلى الله إلا التوبة، نسأل الله أن يغفر لنا! ومن الضروري تكرار التوبة خصوصاً أن الناس مستهينون بالهمز واللمز، بل وأصبح فنًا من الفنون أن تخرج من الإنسان عيوبه أو تتكلم عليه أو تضحك الناس عليه وبهذا تكون صاحب لباقة أو صاحب خفة ظل أو غيره، كل هذه الألاعيب التي يشاهدها الناس تهون عليهم اقتتراف الكبائر، وفي النهاية تكون آثامًا فوق آثام، كون أننا نرتكب كبيرة ونستهين بها، أصبحت هناك مشكلتان، فارتكاب الكبيرة مع الإحساس أنها كبيرة أهون من ارتكاب الكبيرة مع الاستهانة بها؛ لأن من يشعر أن نفسه انفلتت وارتكبت الكبيرة وهي عظيمة في نفسه، سيراجع نفسه، لكن من لا يشعر بذلك فلن يراجع نفسه، وسيبقى سائرًا في طريقه.

إذا الإشارة بالرأس أو الوجه أو العين، هذا كله يدخل في الهمز واللمز، ووجود سورة في القرآن بهذا الاسم يدل على أنّ الهمز واللمز جريمة عظيمة وأن فاعلها لا يفكر في أن الله قد كرّم بني آدم وأسجد الملائكة لأبينا آدم، وأن الله جعل هؤلاء الخلق في هذه الأرض

مكرمين أسيادًا لها؛ ليقوموا بهذه الوظيفة. فالاستهزاء بهم يعتبر جريمة، كيف يكرمهم الله وأنت تهينهم، وإنزال سورة كاملة اسمها الهمة، يدلّك على أنّه ليس من حقك أن تستهين بمن كرّمه الله، الله كرّم الخلق والمفترض أن تحترمهم، الاحترام واجب.

النّصّ الثاني في نفس الباب كان:

عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ وَدَّعَهُ -أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ- اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».

هذا الحديث جزء من حديث معروف من حديث عائشة -رضي الله عنها-، أن رجلاً استأذن على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أُذِنُوا لَهُ، فَبُئِسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ - أَوْ بُئِسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ - فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ مَا قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ؟ فَقَالَ: أَيُّ عَائِشَةَ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ - أَوْ وَدَّعَهُ النَّاسُ - اتِّقَاءَ فُحْشِهِ.»⁽¹³⁾

نقرر مسألة في أوّل الحديث وهي:

¹³() أخرجه مسلم (2591).

كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال عنه هذا القول ثم الآن له القول؟

نهاية الحديث تبين لنا أن هذا الرجل فاحش في قوله فيما عُرف عنه، وهو معروف الاسم والمسلك. وهذا الشيء فعله مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم في خلافة عمر -رضي الله عنه- خاصةً فعل فعلاً يزيد اليقين بأنه فاحش في قوله، وهذه صفة الرجل. ومن جهة الإيمان قال أهل العلم: "إنه غاية في ضعف الإيمان"، حتى وإن كان قد آمن إلا أنه ضعيف الإيمان، وضعيف الإيمان لا يستحضر محارم الله ولا يخاف من الله، فما عنده تقوى لله.

النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن حاله أنه بئس أخو العشيرة، وهذا الرجل حاله بئس الحال؛ فهو رجل غير مقبول فلا تضعوا الثقة فيه ولا تغتروا به. وحينما يُقال: «بئس أخو العشيرة» فهذا يعني ألا تغتروا به، خصوصاً حينما نعلم أنه سليط اللسان وقوي الشخصية، وهؤلاء عادةً يغرون الناس، فيظنهم الناس أقوياء في الحق ويمكن أن ينفعوا المسلمين، والنبي -صلى الله

عليه وسلم- حذر منهم فقال ما معناه: "هذا الرجل ليس ممن تثقون بمثله؛ فهو ابن عشيرة وقبيلة ولكنه ليس خيرهم وإنما هو شرهم." فهذا ذم له لئلا تُوضع فيه ثقة.

دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يمدحه النبي ولا أثنى عليه ولا بيّن له أنه يثق به، إنما الآن له القول. ونتصور أنه طلب أي طلب فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أبشر". فكانت عائشة -رضي الله عنها- تتصور -لأنه سيئ- أنه يجب أن يُقال له: "أنت سيئ"، وهذا أبدًا لا يكون من النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فقد كان غاية في الرحمة. وإذا كانت مواقفه مع المرأة التي زنت والرجل الذي زنى ومع غيرهم مواقف عجيبة عظيمة وكلها رحمة، فهذا ما اعتدى وإنما أتى يطلب طلبًا. والنبي -صلى الله عليه وسلم- في نفسه يعلم أنه بئس أخو العشيرة، لكنه أجابه ليُكفى شره، وما مدحه ولا كذب عليه ولا قال له: "أنت لا يوجد مثلك"! فلم تحصل المداهنة أبدًا من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن هذا مراعاة للمصالح؛ ولذلك لا بد من التفريق بين **المداهنة** -التي فيها مدح أهل الباطل- و**المدارة** -التي فيها كف شر أهل الباطل أو ضعفاء الإيمان-.

نفرق بين **المداهنة والمداراة**؛ فهناك أناس لو واجهتهم بحقيقتهم يفعلون بك الأفاعيل ويسلطون ألسنتهم عليك من أمامك ومن خلفك! مثلاً: تكون هذه جارة سيئة الخلق ولسانها سليط، فإذا واجهناها فلا حل! لن نحسن أخلاقها بالمواجهة، بل ستسلط لسانها علينا ظاهراً وباطناً، أمامنا وخلفنا، فتكون النتيجة أننا أسأنا لأنفسنا، والصحيح في مثل هذا أن نُكفى شرها. فهذا إنسان معروف بشره، وواقع في نفسك أنه صاحب شر، والشرعية لا تقول لك: "لكي تكون واضحاً أخرج ما في نفسك وقل له: أنت صاحب شر!" بل الشرعية تقول لك: "كل مقام مقال"، فإذا أتى أهل الشر وأنت تعرف أنهم أهل شر فلا تمدحهم ولا تدمهم في وجوههم؛ لأنك لو ذممتهم في وجوههم لن تأتيك إلا زيادة شر، وهناك حقوق معروفة فأعطيهم حقوقهم.

لذلك لا يخلو هذا من حياتنا أبداً؛ في مجالس الذكر، ومدارس التحفيظ، والجيرة، والقربى، والعمل، ففي كل مكان هناك أناس ابتلاهم الله في نفوسهم، ولو حركت الشر فيها لأتوا بالشر على المكان كله وعلى الناس جميعاً، فأنت فقط اكف نفسك شرهم، خصوصاً أصحاب

اللسان السليط، فهؤلاء لا أحد يسمع لهم، وهم مؤذون ويؤذون النفوس المحيطة كلها. واليوم في وسائل الاتصال لا يقصرون؛ يسجلون ويكتبون ويصورون، وبهذا نواجه شرًا عظيمًا.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- وضع لنا المنهج: أنت تراه من أهل الشر لضعف إيمانه وقلة تقواه وسلطة لسانه، فإذا رأيت به هذه الصفة فهذا حق نفسك أن تكفيها شره. ولا بد أن يعرف أبناؤك أو زملاؤك في العمل حقيقة هذا الإنسان، فمن النصيح أن يعرفوا حقيقته؛ لأنهم لو رأوك تعامله بالطيب يظنون أنه طيب. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ**»، فلا أطال ولا زاد ولا قبّح في الكلام، إنما قال هذه الكلمة المعروفة وهذا المصطلح يعني: "هذا ليس بأهل ثقة". فهناك في العشائر من هو نعم الرجل؛ صاحب كلمة وصدق وشجاعة، فنعم رجل العشيرة؛ أعطه الصفات الحسنة، والآخر ليس بأهل ثقة، فبئس أخو العشيرة.

فلما دخل على النبي، لم يمدحه -صلى الله عليه وسلم- وما فعل إلا أن الآن له الكلام، فسأله عائشة -رضي الله

عنها:- كيف يكون بئس أخو العشيرة وتلين له الكلام؟
وفي تفكيرها -رضي الله عنها- أن عِظُهُ وأخْفُهُ ليعتدل،
وما فهمت أن هناك نفسيات لا يأتي الكلام معها بنتيجة.
والنبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك بين لها السبب،
قال لها: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتَّقَاءَ
فَحْشِهِ».

يكون في منزلة سوء وشر يوم القيامة من ودَّعه
الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه، فلا يكلمونه ولا
ينصحونه ولا يتعاملون معه، ويكتبون له الرسالة مئة
مرة ويخافون أن يرسلوها! وهذا كله حاصل، فهناك فئة
من الناس اتقاء لفحشها تكلمها كلمتين فقط، مثل: "طيب،
وحاضر، وأبشر". والنفاق أن تمدحه وتثني عليه وأن
تقول: "أنعم بك"، لكننا نريد منه أن يسكت عن شره
فقط، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يريد أن يتقي شره.
وهذا ما استنكرته عائشة -رضي الله عنها- كأنها تقول:
"لماذا يا رسول الله لم تعِظه وتكلمه وتبين له؟" فقال لها:
«يَا عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ
تَرَكَهُ النَّاسُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتَّقَاءَ فَحْشِهِ».

هناك أناس في التجربة الأولى تكون واجهتهم وقلت لهم: "هذا خطأ وهذا صواب"، على أساس أن هذه حقوق يجب أن أخبرك بها، أو أننا إخوة ومسلمون معًا، فتكتشف أنك حينما تقول له هذا يُفحش عليك في القول ويصرخ ويقول كلامًا لا يليق، ويقول: "أنتم تظلمونني وأنتم مجرمون". فإذا عرفت أن هذه حقيقته وطريقته في الكلام، فحينما تقابله لن تمدحه ولكن لا تفتح له مجالًا أن يفحش عليك بالقول، فقط داره وابتعد عنه؛ لأنه مطلوب منك أن تحافظ على صحتك النفسية، ومطلوب منك أن تحافظ على هدوء الأسر والعوائل والعلاقات، وهذا مطلب شرعي؛ ولذا علينا أن نسكت هؤلاء.

وأهم شيء في هذا ألا تكون أنت سليلط اللسان وتبين للناس أنك مسكين، ومع أدنى استفزاز تنفجر؛ فتكون ممن إذا خاصم فجر، لا تعرف حقوقك ولا حدودك ولا حدود غيرك. هؤلاء يفحشون في القول لأنهم لا يعرفون حدودهم؛ يدخلون على الناس دون أن يعرفوا حدودهم، فلو نصحتهم أو وعظتهم ثاروا عليك، فأنت أبعدهم ليقفوا عند الحد ثم سالمهم. ولماذا تفعل هذا الفعل؟ لأنه

مطلوب منك أن تحافظ على صحتك النفسية وتحافظ على هدوء وانتظام الأسر والأماكن والأعمال، ولا نريد أن تذهب القوى كلها في العراق وأن تثبت له أنه مخطئ.

الرسول -صلى الله عليه وسلم- الآن له القول، فليس نفاقاً أن تُكفى شر سليط اللسان، فهذه مداراة وليست مداهنة.

فسليط اللسان لن تقول عنه: "هذا لا يوجد أحسن منه وأخلاقه حسنة"، وستبين للقريبين أن يحذروا وقت التعامل معه. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال في مجلسه الخاص في بيته قال: «بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ».

مثلاً: أتت زميلة جديدة للمدرسة لا تعرفها، فنصحتها نصيحة طبيعية يقولها المسلمون لبعضهم، فثارت عليك وأطلقت عليك اللسان وتكلمت وصرخت، وأنت عرفتَها، فالحل ألا تقاطعها، اقلب الصفحة وهدئ النفوس.

أتى زملاء جدد إلى المدرسة وهذا أقبل عليك، فقل كلمة مختصرة جداً وأنت صادق، وليس أن تخرج

حقّدك، مثلما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فتقول مثلاً: "الله يكفيننا شر كل ذي شر"، وحاول بطريقة لطيفة أن تبين أن الهداية والتوفيق من عند الله، وتقول: "هو توفيق من عند الله". النصّح نيّتنا، فلا نستخدم ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- بطريقة خاطئة؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ» تحذيراً منه بكلمة مختصرة؛ لأنّ مسؤوليته أن يحذر منه حتى لا يثق فيه أحد، وفي الوقت نفسه ما اغتابه، وفي الوقت نفسه حينما دخل الآن له الكلام.

ثم يكفي الوعيد الذي له، فهذا وعيد هائل؛ سيكون في شر منزلة يوم القيامة. هناك منازل للأخيار يرتفعون بها، وهناك منازل للأشرار، وهذه المنزلة للأشرار مثل منازل الأخيار حينما يرتفعون ويراهم الناس كلهم، فهؤلاء يراهم الناس كلهم ويعرفون أنهم أشرار، يعني يبغضهم الله بغضاً. فمن شر الناس؟ «مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتَّقَاءَ فَحْشِهِ»؛ لأنه صاحب لسان بهذه الطريقة.

أسوأ ما في الموضوع أن يكون رجل يحمل علماً أو يتصور الناس أنه يحمل العلم الشرعي أو يحمل القرآن ثم يظهر بهذا المظهر الذي يتقي الناس فحشه، فهذا يكون أعظم في الجريمة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان خُلُقَه القرآن، والمتوقع حينما يكون معك القرآن أن يكون معك ما وصف الله -عزَّ وجلَّ- به المؤمنين: (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) (14)، وإن لم تستطع أن تكون من الأذلة على المؤمنين أو قليلاً منهم، فليس شرطاً أن تكون منهم، فقط اكفِ المسلمين شرك. لا يصح أن تكون حاملاً للقرآن أو عرف الناس عنك الجلوس في مجالس الذكر ومجالس العلم ثم تخرج على الناس بطبعك الذي فيه فحش بالكلمات أو فيه هذا الذي وصفه الرسول -صلى الله عليه وسلم- بـ «بُئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ».

ما يصح ذلك وسيكون الحال بهذا أعظم؛ لأنه جمع بين أن يكون فاحشاً في قوله داخلاً في هذا الحديث، وجمع بين أن الناس ينظرون إليه على أنه يحمل القرآن، فيؤتى الإنسان من قبَلِه، والناس لا يتعدون عليه

¹⁴ (المائدة: 54).

شخصيًا بل يتعدون على ما وراءه من القرآن والعلم. وكم وقع الناس في العلم وفي القرآن وفي الإيمان بسبب أن بعض المنسوبين إليه نسبة غير حقيقية! فلو كان حافظًا حفظًا تامًا للقرآن ثم كان فاحش القول فلا يمكن أن يكون صادقًا؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أنواع قارئ القرآن. فلا بد أن يكون أحد الثلاثة؛ فالإنسان لا يخرج عن هذه الثلاثة، وإذا فحش في القول فبتأكيد لن يكون مؤمنًا، بل سيدخل في منافق أو فاجر؛ لأن القلب الذي يمتلئ بالقرآن واللسان الذي تجري عليه آيات القرآن من المستحيل أن يكون فاحشًا في قوله. ونحن لا نقول إنه لا يخطئ، ولكن الفاحش معناه هذا الذي إذا خاصم فجر، فلا يصلح أن يجتمع في القلب واللسان القرآن مع الفجور والخصومة والهمز واللمز؛ فيصبح الإنسان كاذبًا.

ولو رأيناه قارئًا حافظًا في مجالس الذكر نتذكر الحديث عن أقسام الذين يقرؤون القرآن: «ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن^{٢٨}، ومنافق^{٢٩}، وفاجر^{٣٠}»^(١٥) والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال في حديث الأترجة المشهور:

^{١٥} (أخرجه أحمد (11340)).

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ» (16)

فليس عجباً أن يقرأ المنافق القرآن، وهو كالريحانة تشمها من بعيد فتستحسنها، وحينما تقترب منها وتذوقها تعرف النتيجة. الفحش في القول مع ظهور ضعف الإيمان قضية خطيرة، أما الفحش في القول مع كون الإنسان تظهر عليه معالم الإيمان فتصبح حينئذ مصيبة أعظم.

كل شيء له ثمنه؛ فكون القرآن دخل إلى فؤادك يوجب عليك أن تنقي فؤادك وتربط لسانك. وكونك تقول: "أنا غضوب" أو "عصبي" أو نحو ذلك، فهذا لا يصح؛ إذ لا بد للإيمان أن يحدث تغييراً. فأين امتثالك لقول الله: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (17) وقول النبي -صلى

¹⁶ () أخرجه البخاري (5020).

¹⁷ () البقرة: 153.

الله عليه وسلم:- «**لَا تَغْضَبُ**»⁽¹⁸⁾؟! وأين الدعاء والذل والانكسار لرب العالمين أن يطهر قلوبنا من النفاق وألسنتنا من الفحشاء؟! لا أحد معصوم من الخطأ، ولكن هناك فرق بين أن يكون هذا سمتك وحالتك ووصفك ووضعك وبين أن يكون هذا أمراً طارئاً وتعالج نفسك فيه. وما يزيد الجرح أن يخرج من وسط أهل القرآن والإيمان والعلم من يفعل ذلك فيشوه صورة العلم، ولكننا نعلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد حذرنا ممن سار في طريق الفحش، ولو كان حافظاً للقرآن ويسرده من أوله إلى آخره، فلن يغرنا هذا. فاختر لنفسك أن تكون المؤمن الذي يقرأ القرآن أو خلافه، ونعوذ بالله من تلك الحال!

الكبيرة واضحة؛ من هابه الناس خوفاً من سلاطة لسانه، يعني صاحب فجور عند الخصومة، أو صاحب استهزاء وعدم احترام، أو يكون من حقه وحسده يخرج هذا الكلام، ونقول إن هذه الصفة صفة المنافقين أو ضعفاء الإيمان؛ لأنه لا يجتمع هذا وهذا.

¹⁸ () أخرجه البخاري (6116).

أنهينا الدليلين، ونقرأ الباب الذي يليه، الذي سيزيد الأمر بياناً؛ فإذا كان شرّ النَّاس منزلة يوم القيامة ذلك الرَّجُل الَّذِي يدعه النَّاس اتقاءً فحشه، فماذا يكون المؤمن؟ أتت النصوص تجيب، نشير سريعاً وفي اللقاء القادم نفصل أكثر.

باب البذاء والفحش

وقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)⁽¹⁹⁾

آية سورة الفرقان تخبر عن عباد الرحمن الذين أصل صفاتهم الدُّلُّ لربِّ العالمين؛ لذلك أول صفة من صفاتهم أنَّهم يمشون على الأرض هَوْنًا، فنقول: لماذا ليس من صفاتهم أوَّلاً أنَّهم مصلُّون صائمون؟ لأنَّ هذا غاية الدُّلِّ لربِّ العالمين، فإذا مشوا على الأرض كان عندهم حالة من الانكسار والدُّلِّ، حتَّى للأرض هَيِّنِينَ عليها، لا يوجد كِبَرٌ ولا تعظُّم، لا يرون أنفسهم ذلك الشَّيء الَّذي لا يُمسُّ له طرفه، حتَّى الأرض هم لَيِّنُونَ عليها، حتَّى الأرض لها جزء من الاحترام عندهم، فكيف بالنَّاس

¹⁹ () الفرقان: 72.

وكيف بالمؤمنين؟ هؤلاء حُقَّ لهم أن يكونوا من عباد
الرَّحْمَنِ لكمال صفاتهم وذللهم عند ربِّهم، نسأل الله أن
يرزقنا جميعًا!

ثمَّ يأتي الحديث الذي بعده، قال:

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعًا: «لَيْسَ
الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ».

في الباب الذي درسناه سابقًا كأنه في وصف غير
المؤمن؛ لأنَّ الرّسول -صلى الله عليه وسلّم- قال: «لَيْسَ
الْمُؤْمِنُ» لأنَّ المؤمن ليس بالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا
الفاحش وَلَا البذيء، فلا يصدر منك هذا وأنت مؤمن؛
ففهمنا أنَّ ما قبله إشارة إلى نفاقه. وهذا الكلام يقول لك
إنَّ النصوص السابقة تدلُّ على أنَّ هذا الشخص الذي
يتصرّف بهذه الطريقة يكون ضعيف الإيمان أو منافقًا؛
منافقًا نفاقًا أكبر لأنَّ المؤمن لا يفعل هذه الأفعال.
والمسألة تتردّد بين الأصغر والأكبر؛ لأنَّ من صفات
المنافق نفاقًا أصغر أنّه لعّان. وحينما قال النّبيّ -صلى
الله عليه وسلّم-: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ» ، معناه: أنّه ناقص
الإيمان الواجب، ولا ينتفي عنه أصل الإيمان ولن نقول

عنه إنه كافر. إذا المؤمن يقينًا هو الذي يمتلك الإيمان الواجب، فلا يكون لعانًا ولا طعانًا، وإذا ظهرت هذه الصفات فمعناه أن إيمانه في غاية الضعف؛ لأن الإيمان الواجب هو الذي يكون به الإنسان مؤمنًا وبعيدًا عن النفاق، وحينما يضعف الإيمان الكامل تكون بينه وبين النفاق شجرة. وعليك أن تفرّق بين النفاق الأكبر والأصغر؛ فحينما يضعف إيمانه ضعفًا شديدًا قد يؤول به الأمر إلى النفاق الأكبر، وهو الذي قال الله عنه في القرآن إنّ أصحابه في الدرك الأسفل من النار، والسبب أنّ أصحابه تسلّطون على المؤمنين، فلذا هم في الدرك الأسفل من النار لتسلّطهم عليهم في مجتمعهم. ولن نقول إنّ كلّ لعان هو منافق نفاقًا أكبر، بل منزلته أنّه شديد ضعف الإيمان، ويخشى على مثل هؤلاء أن يذهبوا إلى النفاق الأكبر.

قال: وله وصّحه عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- مرفوعًا: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ»

في هذا الحديث إشارة إلى أنّ المؤمن أثقل شيء في ميزانه يوم القيامة هو حسن الخلق، ومعنى ذلك أنّ المؤشّر العمليّ على الإيمان هو حسن الخلق. وإنّ الله ييغض الفاحش؛ فحينما قلنا هناك إنّهُ سيكون في شرّ مكان، نقول هنا إنّ الله ييغضه، ولذلك أتى حديث عائشة، قال:

ولمسلم عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

يَقِينًا إِنَّ سَلِيْطَ اللّٰسَانِ كَثِيْرَ الْكَلَامِ لِيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الرَّفْقِ شَيْءٌ، وَلَا تَقُلْ: "اسْتَفْزَوْنِي"؛ فَأَصْلًا كَيْفَ تَأْتِي الْاِخْتِبَارَاتُ؟ وَكَيْفَ يَظْهَرُ حَسَنُ الْخَلْقِ؟ مِنَ الْمَوْكِدِ حِينَ تَعَامَلُنِي بِحَسَنِ خَلْقٍ سَأَعَامِلُكَ بِمِثْلِهِ، وَلَكِنْ مَتَى يَظْهَرُ حَسَنُ الْخَلْقِ وَالرَّفْقِ؟ يَظْهَرُ حِينَ يَسْتَفْزِكَ أَحَدٌ! فَالْمَصِيبَةُ أَنْ تَعَامَلُنِي بِحَسَنِ خَلْقٍ وَأَعَامِلُكَ بِعَدَمِ حَسَنِ خَلْقٍ، لَكِنَّ الْمَوْمِنَ يَظْهَرُ خُلُقُهُ حِينَ يَسْتَفْزِهِ أَحَدٌ. فَمَتَى يَأْتِي الْعَفْوُ وَالرَّفْقُ؟ يَأْتِي الْعَفْوُ حِينَ يَتَعَدَّى عَلَيْكَ أَحَدٌ وَيَظْلِمُكَ فَتَعَامِلُهُ بِالْعَفْوِ، وَيَأْتِي الرَّفْقُ حِينَ يَعَامِلُكَ أَحَدٌ

بطريقة غير ملائمة؛ وبذلك يصبح صاحب الأخلاق لا يطالب الناس بالأخلاق، ولكن حين تطالب الناس بالأخلاق في كلّ موقف وتقول: "لو لم تعاملوني بشكل طيّب فسأريكم ما لا يسرّكم"، فما الفائدة؟ وأين الرّفق الذي ما كان في شيء إلا زانه؟ يَقيِنًا إنّ هذا سيكون على وجه المقابلة؛ إذا عاملتموني بشكل طيّب ستجدون منّي الوجه الطيّب، وإذا عاملتموني بشكل غير جيّد ستجدون منّي الوجه السيّئ، ومعنى ذلك أنّك بوجهين! لكنّ المؤمن بخلاف ذلك؛ (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)، ولو تعدّى عليهم أحد لا يدخلون في هذه الأمور ولا يقومون بردود فعل غير مناسبة. وهذا الموضوع كبير جدًّا، والمهمّ أنّنا استوفينا السّابق واللاحق، وفي اللقاء القادم بحول الله نواصل.

اللقاء الثالث عشر

8 ربيع الآخر 1441

تابع باب البذاء والفحش

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبينا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً، ونسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من الشاكرين؛ خاصّةً على هذه النّعمة العظيمة، نعمة الاجتماع على العلم؛ فإنّ العبد يحتاج إلى العلم أشدّ ممّا يحتاج إلى الطّعام والشراب، بل أشدّ ممّا يحتاج إلى أنفاسه التي يتنفسها. فالحمد لله ربّ العالمين الذي سبّب هذه الأسباب، نسأل الله أن يزيد الأسباب ويبارك فيها وينفع بها ويحفظها علينا، ويجعلنا ممّن انتفع بها، وأن نكون من الصادقين الذين خرجنا من أجله، فتكتب لنا الأجور ويقال لنا: "قوموا مغفوراً لكم"، آمين.

من هذه النّعم أنا نجتمع ونتذاكر سوياً نعم الله علينا، وخاصّةً نعمة اللّسان؛ هذه النّعمة العظيمة التي يكون بها

ذكر الرَّحْمَن. فإنَّا مقبلون على ليلة مباركة، ليلة الجمعة، تغيب الشمس ويكون للسان دور عظيم؛ فيه تكون الصَّلَاة والسَّلَام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبه تُرفع الأجور وتُكتب، ويُبارك للمرء في دوره. اللسان هو من يقوم بهذا العمل، وهذه نعمة عظيمة والحمد لله ربّ العالمين، لكن تبقى هذه النُّعْمَة وراءها مشاكل كثيرة، ومنها ما مرّ معنا أن هذا اللسان -كما أنّه يمكن أن يكون شاكراً للرَّحْمَن ذاكراً للمنان- يمكن أن يكون سبباً لسخطه، وبهذا يكون الإنسان قد قلب على نفسه النُّعْمَة نقمة، ويكون السَّبب هو استخدامه للسانه.

نُذَكِّر أنفسنا أن اللسان نعمة عظيمة في البيان والقربى إلى الله وذكره -سبحانه وتعالى-؛ فكلّما قرأنا في الكتاب والسنة وجدنا أن وصف المؤمنين: **(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ)**⁽²⁰⁾ وهؤلاء يذكرون الله أي يستخدمون أسنتهم، وهذه أهمّ صفة لهم.

واليوم أيضاً نقرأ عن هؤلاء القوم أنهم يستخدمون أسنتهم بالطريقة السليمة ويتعدون عن المنكرات بها.

⁽²⁰⁾ (آل عمران: 191).

نُذَكِّر أنفسنا أننا قد بدأنا بكبائر اللسان، وكنا تدارسنا قبلها كبائر القلب، وطبعًا الترتيب مقصود؛ فإن أول مشكلة هي جرائم القلب التي يمكن أن يرتكبها الإنسان، بعد هذا يأتي اللسان، واللسان مغرفة الجنان؛ فما يكون قلبك مليئًا به سيخرج على لسانك. لكن أحيانًا يكون الإنسان مستسلمًا لطبعه، هذا الطبع يجعل الإنسان يستعجل في الكلام، يتكلم فيما لا يصلح الكلام به. ولذلك حينما وصف الله - سبحانه وتعالى - في كتابه الإنسان في سورة المعارج وأتى الاستثناء، سنرى في هذا الاستثناء كيف أن الإنسان يستطيع أن يغلب طباعه، قال تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)، من المؤكد أن للسان دورًا هنا؛ فحينما تكون هلوعًا ومنوعًا من المؤكد أن لسانك يعبر عن هذه الحقائق.

هناك مثال بسيط نكرّره؛ النساء في الحرم في رمضان يدخلن ولا يجدن مكانًا، فيبقين يطلبن التفسيح ويبدأن بانتقاد الناس: "أنه لا يصح هذا وأين الإيمان"، من الهلع يأخذ اللسان في الكلام دون تفكير. ثم وجدت مكانًا (مَسَّهُ الْخَيْرُ) أتت امرأة أخرى تبحث عن مكان

فظهرت حينئذ صفة: (مَنُوعًا)! فأخذت التي تبحث تقول
نفس كلام الأولى: «أفسحوا لنا ونحن إخوان وأين
حقوق المسلمين»، الكلام الذي يُقال للمصلحة النفسية!
التي سبقت وجلست تقول لها: "أين تريدان منا أن
نجلسكِ؟ ماذا نفعل؟" هذا اللسان لعب الدورين معًا! لكن
ربّنا قال: (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) الذين أصلحوا من طباعهم،
وليست أيّ صلاة تصلح الطباع، لكن ركّز أنت في
نفسك لتصلحها، والصّلاح بيد الله لكن أنت بادر، ومن
تقرّب إلى الله شبرًا تقرّب إليه ذراعًا.

المقصد من هذا الكلام أنا في أحيان كثيرة يأتي كلامنا
نتيجة طباعنا. الآية في سورة المعارج تصف الناس
جميعًا إِلَّا المستثنين، الذين هم المصلّون، الذين بذلوا
جهودهم لإصلاح أنفسهم. لكن إذا كان طبعك الغضب
أو الهلع المشترك بين الناس، فورًا تخرج من لسانك ما
يصلح وما لا يصلح! لكن حينما تعرف أن هذا الكلام
يورّطك ويدخلك في كبائر، فأنت تبدأ بإصلاح القلب
الذي هو الإناء واللسان يغرف منه؛ تصلح القلب ومن
ثمّ تضبط اللسان. وكلّ المشاكل التي نعرفها وتحصل
من ورائها مقاطعات وقطيعه رحم وهجران كلّها بسبب

استجابة سريعة للضغوط؛ هناك من يتهجم عليك بلسانه فتفعل مثلما فعل مباشرة. وهناك قواعد كثيرة فاسدة تمام الفساد عند الناس؛ كلّها فيها أنّه: "إذا سكّت سيعرف أنّه لا شخصيّة عندي، وأظهر بمظهر الجبان".

هذه القواعد الشّيطانيّة تجعل الإنسان لا يعرف كيف وصف النّبيّ -صلى الله عليه وسلّم- بوضوح من هو الشّديد؛ الذي يملك نفسه عند الغضب، لا الذي يُضغظ عليه فيغضبوه فيخرج من لسانه ما لا يصلح؛ قال رسول الله: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»⁽²¹⁾.

الشّاهد أنّه كما أن اللّسان مكان لذكر الرّحمن ولشكره سبحانه وتعالى، أيضًا هو سبب لسخطه، فعليك أن تستخدمه في المكان المناسب. نقول نقطتين فقط كأنّهما بداية الإصلاح:

1- ضبط الانفعالات والطباع

يجب أن تبذل جهدك في ضبط طباعك، فلن تستطيع ابتداءً أن تضبط لسانك، فاللّسان كأنّه أداة نهائيّة؛ أوّلاً

²¹() أخرجه البخاري (6114).

بقدر ما تستطيع تضبط انفعالاتك الناتجة عن طباعك. هناك أناس معيّنون يثيرونني، وهناك كلام معيّن هو نقطة ضعفي. هناك من أقرب الناس لنا في حياتنا ربّنا يبتلينا بهم؛ يعرفون نقاط ضعفنا ويعرفون الكلمة التي توجعنا ويقولونها لنا، ونحن نصل إلى الدّرجة العالية ونعطيهم من لساننا، وبهذا يكونون قد حقّقوا مرادهم. يجب أن نعرف أن الخصومات يحضرها الشّيطان.

فاكتشف نفسك؛ اعرف ما الذي يثيرك ويعصّبك لتضبط طباعك الموجودة في نفسك. كلّ منا له نقطة الضعف الخاصّة به التي تثيره، ولو فهمنا ما حولنا لاستطعنا فهم أنفسنا والتّصرّف بالطّريقة الملائمة. علينا أن نهتمّ بملاحظة أنفسنا؛ متى نتكلّم بالكلام الخطأ؟ حينما نكون شديدي الغضب أو الحزن، أو أحياناً حينما لا ينام كثير من النّاس جيّداً؛ من آثار الجهد الحاصلة عليهم يتكلّمون بالسنتهم كلاماً لا يليق. عليك أن تلاحظ نفسك وتعالج طباعك المشتركة والخاصّة بك. أصلح الوجدان وأبصر نقطة التحكّم قدر ما تستطيع قبل أن تصلح اللّسان. وهنا لا يصلح أن تفعل هذا وحدك؛ فلن تستطيع عمل شيء وحدك، عليك أن تستعين وتستغيث

وتطلب من ربّنا أن يكفّيك الشرّ وتستعيذ من الشّيطان
الرجيم.

2- الصبر عن الانفعال ومقاومة الاستفزاز

نبذل الجهد لنصبر على عدم الكلام، عدم الانفعال.
هنا الكلام -فيما مضى- كان الكلام الذي يسمعه من
أمامك، هنا الكلام أيّ أحد يبعث لك برسالة فتضغط
وتسجّل له دون أن تفكّر، أو تكتب له؛ هذا اسمه كلّ
كلام، كأنه خارج من لسانك! وكم من بيوت هُدمت،
وكم من علاقات انقطعت، بل كم من برامج فيها الخير
والصلاح أُغلقت من أجل واحد لم يكن مركزاً وهو
يتكلّم فقطع عنه الخير وقطع عن غيره الخير بسبب
كلامه! القصد أنّه ليس بمجرد أن يحصل عليّ الضغط
أقوم بردّ فعل؛ يجب أن أصبر على عدم الكلام وعدم
الانفعال، خصوصاً لو علمنا أن الله -عزّ وجلّ- يبتلي
الإنسان في حياته بمن يكون مصدراً للشرّ، وهذا
الإنسان بنفسه يمكن أن يكون خيراً وطيباً وذاكراً لربّنا،
لكن الله يبتلينا به، والشّيطان كأنه يستفزّه علينا. وعلى
جميع الأصعدة التي حولنا؛ يمكن أن يكونوا أبناءً أو

أخواتٍ أو أبناء عمومةٍ أو زوجًا أو جارةً أو زميلةً في العلم؛ أصعدة كثيرة يمكن أن يتسلط عليك الناس فيها. أنت ركّز؛ ليس مع أول ضغط يحدث منك كلام وانفعال، اصبر تحقيقًا لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**لَا تَغْضَبْ**»، لا توصل نفسك أن أحدًا يستطيع إثارتك فتغضب.

«**لَا تَغْضَبْ**» في كونك تفهم أن الكلام الذي يقوله الناس مجرد كلام. حينما يستفزّك بأيّ كلمة تחדش عمك مثل: "أنت إنسان مهمل!"؛ هذه كلمة كبيرة على شخص يبذل جهده ويعمل، هو يقول ذلك ليستفزّك، ليس شرطًا أن يكون لا يحبّك، لكن عندنا عامل آخر يسلّط علينا الناس وهو الشيطان الذي يسلّط علينا الناس؛ يكون تسلّط عليه وهو تسلّط علينا. حينما تفكّر أن تقديره أنك مهمل، قل: "الله يعلم أنّي استفرغت جهدي، والله يغفر لي ما حصل منّي من خطأ". هذا الكلام جميل في الهدوء، وحينما تأتي القنبلة يكون الكلام آخر!

ما معنى «**لَا تَغْضَبْ**»؟ اعرف المثيرات التي تثيرك ولا تدع أحدًا يستفزّك بقدر المستطاع.

ثمّ بما أن النّاس يدرسونك ليروا ما يستفزّك، فأنت ادرسهم؛ تكونين في وسط زميلاتك وتساءلك: "كم عمرك؟"، هي تعرف أن هذه نقطة ضعفك، قولي لها ما أردتِ بهدوء؛ هي تريد أن تصل إلى الاستفزاز، فقد حسبت عمرك وتعرفه لا تحتاج إلى السؤال، لكنّها تسألك لتستفزّك، فلا تكونين لعبةً في يد الشّيطان؛ لأنّ الشّيطان يأتي لنا بهؤلاء النّاس.

الآن أصبحت هناك أشياء أخرى كثيرة مستفزة؛ افهم أن «**لَا تَغْضَبْ**» تعني تعال إلى موارد الغضب نفسها وافهمها جيّدًا، ولا تجعلها مثيرةً لك، وكن فاهمًا أنّه ليست المنزلّة عند النّاس هي التي يجب أن تشغلك، إنّما المنزلّة عند الله. هذه الكلمات تنزل عليك مثل القنابل، والمشاعر الأولى يحصل فيها حزن، لكن لا تترك الشّيطان يوسوس لك وتكبر المسألة، وهدّئ نفسك.

هاتان هما النقطتان الأساسيتان لتحلّ مشكلة اللسان: ألا يستفزّني أحد فيخرج منّي كلام؛ **الأمر الأوّل**: أنا أضبط طباعي وألاحظها، **والأمر الثّاني**: أصبر على عدم الكلام والردّ والاستفزاز. نفترض أن أحدًا بعث لك

برسالة مستفزة فكتبت وحصل لك بعض التفريغ؛ عُد وامسحها، وبهذا تنتهي المشكلة بهدوء، وهذه فرصة أن تمسحها فلا تُكْتَب في سيئاتك. التوفيق من الله والعون منه، لكن هاتين هما النقطتان الأساسيتان: صَبْر نفسك، «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ»⁽²²⁾ حتى تتجاوز هذه الابتلاءات وهذه السخافات.

المرّة الماضية مرّ علينا هذا الإنسان الذي يهابه الناس خوفاً من لسانه؛ بمجرد أن يرونه وهم يعرفون أن لسانه حادّ يستعيزون بالله من شرّه، ويقع في أنفسهم بغضّ من رؤيته؛ لأنهم يعرفون أنّه يمكن أن يعطيهم من الكلام ما يؤلمهم، وإذا خالفه أحد في مسألة يعطيه من بذاءة الكلام ما يعطيه!

الباب التالي -وهو موضوعنا اليوم- يبيّن أن هذا الوصف لا يمكن أن يكون لمؤمن، يعني أن التصرّف اللّسانيّ إشارة لما في الوجدان من إيمان، وتأتي النصوص اليوم تبين لنا هذا الأمر. اليوم نقرأ نصّاً نصّاً، وإن شاء الله نُوفِّق إلى بيان معانيها.

²²() أخرجه البخاري (1469).

باب البذاء والفحش

وقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا).

الباب اسمه باب البذاء والفحش لكن أول الكلام هنا عن عباد الرحمن في سورة الفرقان، فكأن البيان بضده، يعني أراد أن يقول إن البذاء والفحش ليسا من وصف أهل الإيمان، وسيتبين لنا الآن، هذه الآية في سورة الفرقان في وصف أهل الإيمان، وأول وصف لهم أنهم (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)، وفي ذلك إشارة إلى تواضعهم وعدم كبرهم وذللهم وانكسارهم لله رب العالمين، وهذا الذل والانكسار سيظهر واضحًا في مسلكهم لله رب العالمين، من مسلكهم (لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ)، وهذا أول مسلك متصل باللسان، والثاني أنهم (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)، فصارت هناك كلمتان تدلان على اللسان: الزور واللغو.

أما (الزُّورَ) فيقصد به كل ما كان فيه تزيين للباطل، من ذلك: الخوض في آيات الله والجدال فيها لأجل إبطالها، ليس أن يتكلموا في آيات الله لأجل أن يفهموها،

هؤلاء يجلسون ويتكلمون زورًا وكذبًا، يزخرفون القول الباطل، فحينما يسمعهم الناس، بسبب كلمات معينة يقولونها تنقلب عندهم الأمور من حق إلى باطل. هذا أخطر قول على الإطلاق في قول الزور، أنهم يخوضون في آيات الله أو في دين الله فيزينون الباطل، يزخرفون الباطل بأن يأتوا بجمل إذا انتشرت بين الناس أخذ الناس هذه الجملة حجة ووصلوا من خلالها إلى إنكار حقائق إيمانية.

من هذه الأقوال: أن يقولوا: "هذا شيء لا يقبله العقل"، مثلاً يقرأ أحدهم سورة الفيل فيسمع أن الله أرسل طيرًا أبابيل ترمي الكفار بحجارة، فيقول: "كيف لحجارة أن تقتل الفيل؟!!" ثم يعقب فيقول: "هذا لا يقبله عقل." ولو حكيت له حادثة الإسراء والمعراج التي فيها أن الرسول صعد إلى السماء، فيقول: "هذا لا يقبله عقل." فيروج بين الناس كلمة الزور العظيمة هذه، أن يأتي إلى الأمور الشرعية مثل الربا وغيرها ويقول: "هذه أشياء لا يقبلها العقل"، كلمة الزور المزخرفة هذه حينما تنتشر بين الناس تجعلهم يعظمون عقولهم لتكون هي الحاكمة على الشريعة، هذا ونحن نستصحب أن الله

كرمنا بالعقل، لكن حينما كرمنا بالعقل جعل للعقل مساحة معينة، كما أن هناك مدى للرؤية البصرية فهناك مدى للحكم العقلي لا يستطيع أن يتعداه، فلا يكون للعقل مدخل حينما تأتي الأمور الغيبية، فلا يستطيع الحكم على صفات الله ولا على الأخبار التي في السماء ولا على ما يكون يوم القيامة، ذاك شأن وما نحن فيه شأن، فمن أجل هذا أعظم الزور هو الخوض في آيات الله، وغالبًا هذا يكون بصورة أنيقة مثل أن يجتمعوا في صالونات الحكمة ويجلسون في مجالس كأنهم يناقشون الأمور الفكرية المهمّة، فيأتي هؤلاء المحسوبون على أنهم مفكرون ويرمون لك مثل هذه القنابل العظيمة علينا، فالناس يستقبلونها ويأخذونها وتصبح هذه الكلمة مثل القاعدة، وكلّما اتاهم شيء من الشريعة لا يناسبهم يقدمون هذه الكلمة.

أو مثل الطعن في السُّنّة، هذا من مجالس الزور، ويكذبون ويقولون: "بعد موت النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- بمائتي عام، كيف للبخاري أن يكتب السُّنّة؟" وهذا كلام زور، في حياة الصحابة -رضي الله عنهم- كتبت السُّنّة، وفي حياة التابعين تلقوها واجتمعوا عليها،

وفي حياة تابعي التابعين عرفوها وكتبوها إلى أن أتى البخاري وصنفها، البخاري صنف وليس هو الذي أتى بالسُّنة، لكنهم يرمون عليك كلمة واحدة: "أن البخاري كتب السُّنة"، كأنهم يتكلمون عن الفكرة الإنجيلية، أنه بعدما مات عيسى -عليه السَّلام- ومات أصحابه بمائتي عام كتبوا الإنجيل، فينقل هذه الفكرة ويأتي بها عندنا في السُّنة، هذه هي مجالس الزور، التي فيها خوض في آيات الله بحيث يفسد على النَّاس الدِّين. وَمَنْ يَأْتُونَ عِنْدَ الْمُقَابِرِ عَلَى عَكْسِ هَؤُلَاءِ، يَقُولُونَ: "الْأَوْلِيَاءُ لَهُمْ كَرَامَاتٌ وَأَمْسَ أُعْطُوا وَفَعَلُوا لَنَا، وَهَذَا الْوَلِيُّ -الْمُتَوَفَّى- أَمْسَ صَلَّى وَطَافَ فِي الْحَرَمِ" وَيُخْرِفُونَ أَمَامَ النَّاسِ، هَؤُلَاءِ أَيْضًا مُجَالِسُهُمْ مِنْ مُجَالِسِ الزُّورِ الَّتِي يَزْخَرُ فِيهَا الْبَاطِلُ.

من مجالس الزور اليوم: قراءة كتب أهل الباطل، هم في مجلس لا يذهبون إلى مكان فيه زور، أوَّل ما يجدون من يتعدى على السُّنة أو الكتاب أو يخوض في آيات الله، فهذا يستبق الباب، وعليه أن يفرَّ هاربًا ومثل هذا ممن فتح كتابًا ووجد فيه باطلاً عليه أن يخلق الكتاب ويهرب منه، خصوصًا أن النَّاس اليوم يمدحون القراءة،

واليوم تقول: "ليتهم ما قرؤوا!"; لأنهم لا يجتمعون إلا على الباطل إلا من رحم ربّي، ومن رحم ربّي وما قرؤوا الباطل، لا يقرؤون شيئاً! لن نتكلّم عن هؤلاء، لكن قد تبلى بكتاب ثمّ تفتحه وتجد فيه باطلاً فلا تستسلم له لأنّ مثل هذه المعاني قد تدخل إلى الفؤاد ولا تعرف أين تقع وكيف تتردد وكيف يستلمها الشيطان وكيف يحولها إلى وسواس. لا تقل: "أنا سأتعرف على ما يقوله الملاحدة لأرد عليهم!" امسك إيمانك واحفظ دينك لأنّ الباطل إذا دخل من الصعب إخراجة وأحياناً يكون شأناً مستحيلاً، هذا كلّ اسم شهادة الزور.

(لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) يعني لا يجلسون المجالس التي فيها خوض في دين الله وآياته، سواء كان على مستوى الشّرك أو إبطال الحق؛ لأنهم يعرفون أن المتكلّم الذي تكلّم الزور يمكن أن يزخرف في قوله زخرفة عالية فتغتر به، لماذا سمي زوراً؟ لأنّه يزور يعني يزخرف زخرفة تجعلك تنبهر به، وهذا خطر اللسان، أنّه يزور الحقائق.

إِذَا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَعِبَادِ الرَّحْمَنِ **أَوَّلًا**: (لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ)، يَعْنِي الْأَمَاكِنَ الَّتِي فِيهَا كَلَامٌ بَاطِلٌ وَخَوْضٌ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَبَدًا، وَإِذَا سَمِعُوا مِنْ يَتَكَلَّمُ بِالزُّورِ لَا يَقْعُدُونَ مَعَهُ، فَمِنْ بَابِ أَوَّلَى أَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِالزُّورِ، كَأَنَّ الْآيَةَ هُنَا قِيَاسُ الْأَوَّلَى، إِذَا كَانَ هَذَا حَالَهُمْ فَالْأَوَّلَى أَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ.

ثَانِيًا: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)، هُمْ لَيْسُوا فَقَطْ لَا يَذْهَبُونَ بِأَقْدَامِهِمْ إِلَى الزُّورِ، حَتَّى إِذَا مَرُّوا مِنْ بَابِ الْمَصَادِفَةِ، وَمَرُّوا عَلَى أَمَاكِنَ فِيهَا كَلَامٌ سَيِّئٌ، مَرُّوا كِرَامًا. الْمَعْنَى: حِينَمَا تَجِدُ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ بِأَيِّ شَيْءٍ وَبِأَيِّ طَرِيقَةٍ وَيَدْخُلُونَ فِي أُمُورٍ تَنْفَعُ وَأُمُورٍ لَا تَنْفَعُ وَيَخْلُطُونَ الْمَسَائِلَ، لَا تَجْعَلُهُمْ مَنَبَعًا صَافِيًا لِتَسْمَعُ مِنْهُ، هَذَا يَصْبِحُ لَغْوًا، هُمْ يَلْغُونَ، يَقُولُونَ أَيْ كَلَامٌ يَخْرُجُ مَعَهُمْ، فَأَهْلُ الْإِيمَانِ لَا يَسْمَحُونَ لَأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ إِذَا دَخَلَ فِيهَا الْكَلَامُ الْبَاطِلُ سَيُشْغَلُهُمْ.

الْمَقَابِيسُ الَّتِي يَرْمِيهَا النَّاسُ عَلَيْكَ، يَتَكَلَّمُونَ أَنَّ هَذَا قَبِيحٌ وَهَذَا حَسَنٌ وَهَذَا الْمَكَانُ طَيِّبٌ، وَهَذَا غَيْرُ طَيِّبٍ،

إلى آخره مما اتصل باللغو العام، أنت تكون في غفلة عنه، حينما تمرُّ بمثل هذه المجالس وتستقر فيها حتَّى لو لم تشاركهم سيدخل الكلام إلى فؤادك، أما عباد الرحمن إذا مروا باللغو مروا كرامًا، بمعنى: أنَّهم ينزهون أنفسهم عن أن يقعوا في اللغو، وهو الكلام غير النافع لا في الدِّين ولا في الدُّنيا، ليس شأنًا نافعًا في دنياك بل شأن ما لك فيه، وهذا يخالف قول الله تعالى: **(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ)** (23) فيمدون أعينهم، ويرون ما اشترى النَّاس نتيجة الأجهزة ووسائل التواصل، فهذا من اللغو لأنَّ فيه مخالفة للنص، والنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد أمر أن ننظر لمن هم دوننا ولم يأمر بالنظر لمن هم أعلى منَّا في الدُّنيا، ذلك أحرى ألا تحتقر نعمة الله، من اللغو أن تتكلَّم في مثل هذا، هؤلاء يرفعون أنفسهم أن يدنسوا بمثل هذا. من باب أولى أنَّهم لا يتكلَّمون باللغو ما داموا إذا مروا به مروا كرامًا. هم بعيدون عن الزور وعن اللغو، وهذا حال عباد الرَّحمن، من يتكلَّم الزور ويتكلَّم اللغو تنتفي عنه هذه الصِّفات الكريمة، لن يكون من عباد الرَّحمن

²³ () طه: 131.

المخلصين المؤمنين الأتقياء، ويأتي الحديث الذي بعده
يقرر هذه المسألة بوضوح:

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعاً: «لَيْسَ
الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ».

«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ» هنا كما مرَّ معنا سابقاً نفي كمال
الإيمان الواجب، هناك إيمان واجب وإيمان كامل، إذا
انتفى الإيمان الواجب معناه: ما بقي مع الإنسان إلّا
أصل الإيمان. نحقق المسألة بكلام سهل ومع التكرار
سيتضح لأنّه ستأتينا نصوص كثيرة فيها الكلام عن
المؤمن ونفي الإيمان. عندنا:

أصل الإيمان، معه أركان الإيمان فيعترف بأركان
الإيمان كلّها والصّلاة على أصح الأقوال، هناك خلاف
عن الصّلاة. من معه أصل الإيمان، من شهد أن لا إله
إلّا الله وآمن بالأركان الستة وما أنكر شيئاً منها، وهو
صادق في ذلك وصلى لكنّه متفلت من باقي الأشياء.
وفي الحديث أنّه آخر من يخرج من النار من كان في
قلبه مثقال ذرة من الإيمان، هذا الذي معه أصل الإيمان.
هذا مبحث طويل نحاول أن نختصره.

كمال الإيمان الواجب معناه: أنَّك ستقوم بأركان الإسلام وأركان الإيمان، وتقوم بكلّ الواجبات التي يجب عليك أن تفعلها؛ لأن الأركان يقوم عليها البناء لكن هناك واجبات كثيرة تكمل البناء، الإيمان له أركان تُبنى عليه وواجبات تكمل هذه الأركان.

كمال الإيمان المستحب، كأنك تزين البيت. حينما يقول الرسول: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ**» يعني ليس كامل الإيمان الواجب.

المؤمن كامل الإيمان الواجب لا يأتي بهذه الصفات، من بيته مبني لم يزينه بعد، لا يمكن أن يكون طعناً ولا لعناً، وإذا حصل منه أن يكون طعناً ولعناً كأنه هدم هذا، لكن لا ننكر أن معه أصل الإيمان الذي يحرم الخلود في النار، لكن وجود الإيمان الواجب هو الذي أقرب ألا يدخل الإنسان إلى النار. الكامل هو من يكون أصحابه السبعون ألفاً مثلاً لا يقفون للحساب، يدخلون الجنة بلا حساب. الله يرزقنا الأسباب ويقبلها منا!

قصدنا أن نفهم هذا لنعرف هول المسألة، حينما يكون المؤمن لعناً أو طعناً أو فاحشاً أو بذيئاً كأنه كسر

جداره الذي بناه في الإيمان، فيصبح بيته متخللاً؛ لأن هذا المعنى في الحديث يشير إلى أن هذا الفعل لا يصدر من مؤمن عنده قوة في إيمانه، لا بد أن يكون ضعيفاً في إيمانه لتخرج مثل هذه الكلمات منه. لكن بعض الناس تربوا في بيئة تجعلهم يقولون مثل هذا الكلام، من الممكن أن يحصل هذا من طفل تربي بهذه الطريقة ولم يكن عرف نفسه، لكن الكلام عن عرف نفسه وطلب لها التهذيب، من بلغ وعرف أنه محاسب لا يقبل منه أن يقول: "أهلي ربوني بهذه الطريقة"، هذا كلام غير مقبول، لماذا لم يقل هذا الكلام الصحابة الكرام وهم قد بلغوا الخمسين والستين من أعمارهم؟! لأنهم عرفوا أنهم مسؤولون عن تصرفاتهم، نحن لا نحاسب الطفل الصغير بل الواعي الكبير الذي يعرف أنه المكلف عن أعماله، كلما زاد الإيمان كلما استحي الإنسان أن يخرج من لسانه ما لا يليق، وهنا لا نتكلم عن فلتة اللسان التي تأتي في الزمان مرة أو مرتين، نحن نتكلم عن كان ديدنه هذه الحال. الإنسان يمكن أن يمثل أمام الناس لكن حينما يخلو مع أهل بيته ومن يحتك معه كثيراً يجدون هذه الكلمات فيكون هذا دليلاً على نقص كمال الإيمان

الواجب. نرى معنى كل كلمة من هذه الكلمات وسنرى كم هي خطيرة ولا تليق بمؤمن أبدًا، نبدأ بأول كلمة وهي:

«الطَّعَانُ»

«الطَّعَانُ» من أخطر النَّاس على المجتمع الإسلامي، نعوذ بالله، وهو الَّذي يطعن في الأنساب، في أعراض النَّاس، وهذا يبتدىء بالشَّيء البسيط مثل الغيبة والنميمة، وينتهي بالشَّأن العظيم وهو الاتهام بالزنا أو اللواط أو أن هذا ليس منسوبًا لأهله وأنَّه ليس ابن حلال. الطعان يبدأ من عند أن يَغتاب ويتهم أعراض النَّاس وينتهي بأن يستسهل أن يقول: "إن هؤلاء ليسوا من نسب صحيح أو يفعلون الفاحشة"، يطعن خاصَّة في الأنساب، في مبدأ الكلام يَغتاب وينم ثمَّ يصل إلى حد أنَّه يطعن في الأنساب. والطعن في الأنساب ممكن أن يحصل من الزوج لأن ليس عنده إيمان، ويمكن ليتخلص من زوجته يقول: "لا أشعر أن هذا ولدي!" فتكون هذه مصيبة عظيمة، اليوم مع فقدان النَّاس عقلهم وائترانهم وإحساسهم بالمسؤولية تجاه الكلمة الَّتِي يقولونها، تجد

هذا الكلام موجودًا مع وجود الاختبارات التي تؤكد أنه منسوب إلى أبيه، ومع انتظار هذه الاختبارات تكون الفضيحة سرت في كل مكان وأتى كلام لا معنى له، أنت تتأكد أن هذا الكلام لا يمكن أن يخرج من المؤمن الذي يعرف أن ربه مطلع وأن ربه قادر على فضحه ويعرف أنه لا يمكن أن يتركه الله - عز وجل - يظلم الناس، وأنه في نهاية الأمر سيفتضح، وإذا لم يفتضح في الدنيا سيفتضح غدًا على رؤوس الخلائق، فلو كان الإنسان مؤمنًا لا يستطيع أن يكون طعانًا أبدًا، لا يمكن أن يجتمع معنى طعان ومعنى الإيمان فكيف تهون عليك نفسك أن تُفصح أمام الخلائق يوم القيامة كما فضحت الخلق هنا واتهمتهم. إذا كنت مؤمنًا حقًا ستحمل همّ هذا.

من الإشكالات الكبيرة التي تحصل لنا السماعين لهذا الكلام، الناقلين له. هنا قاعدة معروفة في الشريعة: "الفاعل يحاسب والناقل الموافق يصبح مثل الفاعل"، قال رسول الله: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»⁽²⁴⁾ إذا سمعت الكذبة ليس عذرًا لك أنك سمعتها ولم تخلقها؛ لأن القائل كذاب. كفى بالمرء أن يوصف

²⁴() أخرجه أبو داود (4992).

بالكذب أن يحدث بكلّ ما سمع، أنت لم تكذب وقلت: "فلان قال"، لكن أليس عندك عقل؟ هو كاذب ونقل لك، كلامه يعتبر كذبًا. الطعان هو من بدأ أوّل مرّة ومن معه طعان لأنه من نشر.

الإشكال أن تكون لا علاقة لك بالشخص، ولا يأتي في ذهنك في يوم من الأيام أن تطعن في عرض أحد أو تتهمه أنّه ليس ابنًا حلالًا، لكن لمجرّد تقبّل المسألة وأيضًا نقلها ونشرها نكون شاركنا في الجريمة، أو قبلنا بادعاء ليس عليه شاهد. إذا كانت الشريعة في مسألة الزنا تطلب أربعة رأوا بأعينهم هذا الحدث، إذا رأى ثلاثة بدون الرابع يجلد الثلاثة في حكم الشريعة، وأنت تصدق من يرمي لك كلمة؟ إذا كان ثلاثة يجلدون ويعدون في حكم الشرع كاذبين، وإن كانوا صادقين، فكيف أنت تقبل هذا الكلام؟ لو أنت مؤمن تعرف أن أعراض الناس من المحرمات العظيمة لا تقبل فيها كلامًا. أعد النصّ على النصّ السابق واقراه مرّة أخرى: **(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)**، من يقول لك: "أنا أشك في هذا أو أشعر"، قل له: "لا علاقة لي بهذه المواضيع" ولا تتكلّم في أعراض

النَّاسُ أَبَدًا، بمعنى: إذا واجهك مثل هذا يجب أن تعرف أنَّها جريمة عظيمة لا يسهل الكلام عنها ولا استسهالها، يجب أن تعرف أن أعراض المسلمين جريمة عظيمة. المشكلة اليوم أن الاتهامات للنَّاس أصبحت سهلة، أنت لا علاقة لك، اقرأ في الشرع لتفهم ما المطلوب منك وأين تقف في الشريعة. نشعر أن الطعان لا يمكن أن يكون مؤمنًا لأنَّه لم يحسب أن الله يفضح الكاذبين ولا حسب حسابًا لما سيكون يوم القيامة وهذا أكيد دليل على ضعف إيمانه.

«اللَّعَانِ»

«اللَّعَانِ» ليس من يلعن فقط، بل هو لعان، مما يعني أن الطريقة المستمرة التي يتعامل بها مع الناس هي اللعن، وكأن هذا الأمر سارٍ في لسانه ويستسهله ويرى في نفسه أن الأمر سهل، يستسهل اللعن.

ما أصل اللعن؟ أن تدعو على أخيك أن يُطرد من رحمة الله، أو أن ينزل عليه سخط الله.

وهذا لا يمكن أن يكون وصف المؤمن للمؤمن، لا يمكن مهما وقع في قلب المؤمن من إشكالات ومشاكل،

لا يمكن أن تتمنى لأخيك المؤمن أن ينزل عليه سخط الله. الأعظم في الإشكال والذي يدل على عدم الإيمان أنك استسهلت أن تطلب من رب العالمين أن يطرد أحدًا من المؤمنين من رحمته. نتصور هذا لو وقع على أحد من أولياء الله أو ممن يحبهم الله، تلعن أي أحد أمامك، ويمكن أن يكون من أمامك وليًا من أولياء الله أو يحبه الله أو حافظًا لكتاب الله. عدم اللعن حق لجميع المسلمين ويزيد في حق هؤلاء، والذي دعا بهذا اللعن يكون هو المستحق للعن. وإذا تعديت على أحد أولياء الله الصالحين فتكون المسألة أعظم؛ لأن الله قال في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»⁽²⁵⁾ بهذا تكون قد عرّضت نفسك لحرب الله، وهذا أمر عظيم تستسهله بلسانك. أعظم المعاداة أن يخرج من لسان الإنسان مسبةً خاصةً للعن.

معنى ذلك: أن تكون حذرًا لا تستسهل أن يقع على إخوانك المؤمنين غضب الله وسخطه، وتخاف أن يكون أحدٌ ممن دعوت عليهم من الأتقياء الأولياء فتكون قد

⁽²⁵⁾ أخرجه البخاري (6502).

عاديتَ وليًّا لله، وإن أثار غضبك لكن، كما في الحديث،
«لَا تَغْضَبْ».

عرفنا أن الطعن متصل بالأنساب غالبًا، واللّعان من
يسأل الله أن ينزل غضبه وسخطه على الخلق.

«الْفَاحِشُ»

«الْفَاحِشُ» يُقصد بها من يتكلم بكلام بذيء مخالف
للأدب، فيه من إيذاء مشاعر الناس ووصفهم بالقبائح
وذكر ما لا يليق في المجالس، فيه من إيذاء المؤمنين ما
فيه. هذا ليس بمؤمن لأنه يقول كلامًا فاحشًا. والكلام
الفاحش أين إشكاله؟ اللعن والطعن واضح إشكالهما
الكبير، أما الكلام الفاحش أي: الذي لا يليق، المؤذي،
الذي فيه سباب، الذي فيه إيذاء، لكن ليس أي إيذاء، بل
فحش وتعدّ. ولذلك الجرح في الأحكام الفقهية إذا خرج
منه دم قليل صح الوضوء، وإذا خرج منه دم فاحش
-يعني كثيرًا- يكون حكمه مختلفًا. حينما يقال: "هذا كلام
فاحش"، يعني ليس كلامًا مؤذيًا بسيطًا، بل كلام عظيم،
الناس كلهم يتفقون على أن هذا كلام لا يليق، لا يُسمع،

لا تتحمل لو كان عندك شابات أو أطفال أن يسمعوا مثل هذا الكلام.

هذا الكلام الفاحش لا يصدر من مؤمن؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في خطبة الوداع حرّم بعضنا على بعض، حرّم أموالنا وأعراضنا، وحتى أنه -صلى الله عليه وسلم- حرّم أبشارنا (بشرتنا)، وقد مرّ معنا هذا الكلام من قبل: أنك حين تمسك بقلم رصاص وله سن حاد وتتصرف ولا تركز، يمكن لهذا القلم أن يخدش الزميل، هذا الخدش محاسبٌ عليه العبد لأن الأَبْشار محاسبٌ عليها، لا يلزم أن يسيل الدم. كما حرّمت أموالنا وأعراضنا ودمائنا -وهذا كله مشهور- حرّمت أبشارنا أيضًا، فخدش البشرة ممنوع. إذا كان خدش البشرة ممنوعًا، فكيف بالذي يقول كلامًا مؤذيًا لا تتحمله النفس؟ وألم النفس أبعد من البرء في مقابل أن البدن أسرع إلى الشفاء. كثير من الكلمات المؤذية حينما تدخل إلى الذهن تبقى النفس متألمة وقتًا طويلًا، فالمؤمن لا يؤذي نفسه ولا يؤذي المؤمنين بقول الكلام الفاحش.

الشرعية حكمت بأن أيّ أحدٍ يخرج منه الكلام الفاحش فقد نقص إيمانه الواجب. يجب أن نعرف الفرق، ليس فقط أن تكتب ملائكة الشمال أنه ذنب، أيضًا أتى إلى إيمانه وأخذ منه. إذا كان يركز في آية إذا قام يصلي، فإذا وقع في الفحشاء لا يركز حتى في هذه الآية. إذا كان يعمل أعمالًا صالحات يتقرب بها إلى الله -شيء زائد على الواجب- فبسبب هذه المسببة التي خرجت من لسانه لا يقوى قلبه على طاعة الله. كلما حصل من هذه الأشياء شيء من هنا نقص الإيمان، وإذا استمر على هذه الحال ينتقل من حال الإيمان إلى حال النفاق؛ لأن الفرق بين المؤمن والمنافق الإيمان، إذا نقص الإيمان اقترب الإنسان من النفاق، وإذا زاد الإيمان اقترب الإنسان من قوة الإيمان. فمعنى «ليس المؤمن»: أن كل فعل من هذه الأفعال سينقص من ورائه الإيمان، وهنا المصيبة العظيمة.

«البَّذِيءُ»

«البَّذِيءُ» مثله مثل الفاحش، الذي حينما يريد وصف شيء لا يختار الكلام الجيد، يأتي بكلمات حقيرة،

مرفوضة، لا يليق الكلام بها، يرد بطريقة فيها كلمات سيئة، بمعنى: أن هذا لا يتخير الكلام لأنه لا يشعر أنه: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ⁽²⁶⁾ الكلمة الحسنة تُكتب حسنة، والكلمة السيئة تُكتب سيئة، وهو لا يفكر بهذا. إذا كان هناك معنى بسيط بسؤال عادي فيعتدي عليك بقول كلام بذيء لا يراعي فيه كونك مؤمناً مثله. هذا كله يسبب نقص الإيمان، نسأل الله أن يحفظ علينا إيماننا ويجعل ألسنتنا على الحق دائماً.

السلام عليكم ورحمة الله

⁽²⁶⁾ () ق: 18.

اللقاء الرابع عشر

22 ربيع الآخر 1441

تابع باب البذاء والفحش

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. بسم الله، توكلنا على الله.

سنعود مرة أخرى إلى مناقشة كتاب (الكبائر)، وكنا قد وصلنا إلى باب في البذاء والفحش، ويُقصد بهذه الكبائر: الكبائر اللسانية؛ الكبائر التي تقع من اللسان. وقد مر معنا أن اللسان نعمة من رب العالمين؛ قد أنعم الله علينا بالنطق والبيان، إلا أن النعم قد يخطها الشيطان فيحولها إلى نقمة لمن استجاب للشيطان. وكنا قد مررنا بأبواب في اللسان، ووصلنا إلى باب (البذاء والفحش)، والمقصود: التعدي على الناس باللسان.

التعدي على الناس باللسان يُسمى بداءة، والتعدي على الناس بالجوارح يُسمى فحشاً، ولكن نحن في أبواب اللسان، فلماذا ذكر الفحش؟ المقصود أن البذاءة تفتح

باب الفحش؛ بمعنى: أن الناس لا يصلون إلى التقاتل إلا إذا بدؤوا ببذاءة اللسان، فلا أحد يعتدي على أحد مباشرة إلا ويكون له سابق بذاءة باللسان. فمبدأ الفحش البذاءة إذا اعتبرنا أن مبدأ الفحش هو الاعتداء على الناس بالجوارح، واعتبرنا أن البذاءة هي الاعتداء باللسان؛ لذلك قال: "**باب البذاءة والفحش**"، يعني: ما ورد في الاستنكار على الناس أن تقع منهم البذاءة أو يقع منهم الفحش.

بدأ الباب بآية الفرقان التي فيها وصف لعباد الرحمن، وبيان أن عباد الرحمن الذين ارتفعت مكانتهم عند رب العالمين بسبب قوة إيمانهم من أوصافهم أنهم لا يشهدون الزور، وإذا مروا بأي صورة من صور اللغو مروا كرامًا؛ بمعنى: أنهم يبتعدون عنه ويهربون منه. ولنا في سورة يوسف صورة الهروب من الفحشاء، سواء البذاءة باللسان أو الفحشاء بالجوارح، ففي يوسف -عليه السلام- خير قدوة؛ فإنه قد استبق الباب حينما وجد نفسه في حال مواجهة مع الفحشاء، استبق الباب وهرب. هذا المعنى نفسه موجود في آية الفرقان: **(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ**

مَرُّوا كِرَامًا)؛ بمعنى: أنهم لا يخالطونه ولا يدخلون فيه.
واتفقنا على معنى اللغو ومعنى الزور.

الشيخ يتكلم عن البذاء والفحش، والآية فيها كلام عن عباد الرحمن الكُمَّل؛ فكأنه يُقال: "عباد الرحمن الكُمَّل لا تصدر منهم البذاءة ولا الفحش"، بل إذا وجدوا مجلس زور لا يشهدونه، وإذا مروا على أصحاب لغو مروا كرامًا. هؤلاء لا يقبلون أن يجلسوا مجالس بهذه الحالة، فكيف يصدر منهم هذا؟ هذا الكلام المقصود به المؤمنون الصادقون، أما المنافقون فلهم في الظاهر حال وفي الباطن حال، وهم ليسوا موضوعنا.

بعد هذه الآية أتى الحديث: **«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ»**؛ يعني: ليس من أوصاف الإيمان، ولو وُجد وصف من هذه الأوصاف دلّ على نقص الإيمان. وقد مر معنا أن هذه الأوصاف -الطعن واللعن والفحش والبذاءة- يترك الناس أنفسهم فيها على ما تربوا عليه؛ فمن الممكن أن يكون الإنسان قد تربى في بيئة غير جيدة، ولكن حينما يستفيق لنفسه ويعرف ربه ويعرف العلم، فالمفترض أن يخرج من

التربية الأسرية إلى التربية الذاتية، ونخرج من تحميل الآباء والأمهات والمجتمع المسؤولية إلى تحميل أنفسنا المسؤولية. فلا أحد في ساعة غضبه يخرج من لسانه ما لا يليق ثم يقول: " هذا لأنني غاضب، أو لأنني في مجتمع تربيت فيه بهذه طريقة!" نقول: الإيمان يغير ما في الإنسان حتى من أمور تراكمت بالتربية، حتى الأمور التي تراكمت بالتربية يعدلها الإيمان رويدًا رويدًا. نحن لا نقول إن المفترض أن يغير الإيمان الإنسان مرة واحدة؛ فدرجة إيمان زائدة تقابلها درجة تحكم في التصرفات زائدة؛ لأن العبد الذي يزيد إيمانه، تزيد تقواه وملاحظته لرضا ربه والاستعانة بالله والاستغاثة بالله، ويزيد توكله على الله في أن يُقضى الأمر بلا غضب، وأن يقع منه ما يزعج الناس وما يزعج نفسه.

حتى حينما تقبل على الناس -مثلاً تريد زيارتهم ووصلهم، وصلة الرحم مطلوبة- وتعرف أن فلانًا يستفزك أو يغضبك، فقبل أن تذهب ادعُ ربنا أن تكون واصلًا، وأن تكون غير فاحش ولا بذيء. هذا لأن الإنسان يكون صادقًا مع نفسه؛ فهذا يرى نفسه في مرآة فلا يضخم نفسه ويرى أنه كامل، ولا يجلد نفسه ولا

يرى إلا العيوب، إنما عنده ميزان صحيح معتدل؛ لذا نفسيته مستقرة، يضع يده على العيوب، ويعرف أنه غضوب وأن لسانه قد يفلت منه وأنه قد يقول ويقول، فيؤدب نفسه ويدعو ربه حتى يستقيم له الشأن، ويدخل على باب الله وهو يعلم أن «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ». معناه: أن بذاءة اللسان علامة على نقص الإيمان.

الأصل في الطعان: الذي يطعن في الأعراض، إلا أن الأمر واسع؛ معناه: أنه يدخل فيه كل من يهمز ويلمز الناس، وكل من يذكر الناس بمقال سوء. وهنا تُستثنى القاعدة المشهورة وهي التي لها قوانينها وضوابطها ومعارفها الواضحة التي بها يصل الإنسان إلى حقه دون أن يطعن، أو أن يحول الأمر إلى القاضي أو إلى ولي الأمر أو إلى مستشار، فهذا أمر آخر. لكن من كانت تسليته طوال الوقت في الناس وتتبع عيوبهم فهذا طعان؛ بمعنى: الهمز واللمز. وفي هذا لا يُستثنى الإخوة والأخوات، ولا يُستثنى حتى الأبناء؛ بمعنى: هذه أختك وهذه صفات لا تناسبك، تكون إحداهن غير موجودة والبقية يطعنون فيها، وإذا ذهبت الثانية استلموها! وكل الأمر على أننا أشقاء، ولأننا أشقاء نرى أن الأمر مباح!

الأمر مثل غيره؛ بمعنى: أن الطعان يسهل على لسانه الغمز واللمز في الناس وإظهار عيوبهم أيًا كانت علاقته بالناس.

الطعن في الأقرب أيسر من الطعن في الأبعد؛ بالنسبة للنفس الأصل أن من تعرف عيوبه أكثر هو الأقرب، وهذا الذي يمكن أن تعيبه أكثر، والشيطان يضغط عليك في القرب أكثر مما يضغط عليك في البعد؛ بمعنى: أنك تستطيع أن تقيس نفسك بأنك أكثر ذوقًا وأدبًا وأخلاقيًا مع البعيدين، والناس القريبون أنت أقل من ذلك معهم، والسبب معروف: كثرة الاحتكاك، والشيطان لا يتركك. والأصل في الطعن: الطعن في الأنساب، إلا أن الطعان بمعناه الواسع هو أنه يغمز ويلمز ويذكر عيوب الناس.

«وَلَا اللَّعَانِ» وهو الذي يدعو على الناس بالسوء؛ سواء بلفظ اللعن نفسه أو بكل الألفاظ التي هي في نفس المعنى؛ لذلك في الحديث ورد: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا بِغَضَبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ»⁽²⁷⁾. المقصود باللعن أن يقول بلسانه هذه الكلمة؛ يقولها ويقول ما يشبهها، ومن يدعُ

⁽²⁷⁾ أخرجه أبو داود (4906).

على أخيه أن يخزيه الله ولا يدخل الجنة فهذا يدخل في اللعان.

الطعان من يخبر عن الناس بسوء خاصة في أعراضهم، واللعان من يدعو على الناس بالسوء. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽²⁸⁾؛ لأن هذا لا يكون مؤهلاً أن يكون شافعياً ولا شهيداً يوم القيامة؛ لأن الشهيد والشفيع معناه: كان في الدنيا يدعو للمؤمنين، ويسأل الله -عز وجل- لهم الهداية والصلاح وأن يفرج همومهم، لكن من لا يسلم منه المسلمون في الدنيا لا يصلح أن يكون شهيداً ولا شافعياً يوم القيامة؛ فالمسلمون من لم يصلهم خيره في الدنيا لن يصلهم خيره في الآخرة.

«وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ»؛ إذا اقترن الفاحش والبذيء فمعناه: أن الفحش ما استُقبِح من الأفعال، والبذاءة فساد اللسان وسوأتها. ما داماً قد اجتمعا فيكون الفحش في الأفعال والبذاءة في اللسان، أما إذا افترقا فكلاهما يكون في اللسان، وفي الحديث أتيا معاً. الفحش هو الأعمال الفاحشة التي فحشت؛ مثلما يقولون في

⁽²⁸⁾ أخرجه مسلم (2598).

الفقه: "إذا كان الدم فاحشاً فحكمه كذا وكذا"، والدم الفاحش عكس الدم القليل، فما معنى الفحش؟ الكثير. الفحش يمكن أن يكون في الأقوال؛ هذا ديدنه وعادته ليست المرة والمرتين، وإذا كان الفحش في الأفعال فمعناه: هذا ديدنه وعادته لا يسلم منه أحد. فالفحش عموماً؛ يُسمى الزنا فاحشة لأنه شيء خطير جداً في الأفعال؛ لذلك سُميت الفاحشة حتى إنها بألف ولام العهد؛ فالناس حينما يقولون: "فعلوا الفاحشة" فالمقصود بها الزنا والعياذ بالله، وهذا ما يُقصد به الفحش في الأفعال عموماً، لكن حينما يجتمع الفحش مع البذاءة تكون البذاءة في الأقوال والفحش في الأفعال، وحينما ينفردان يكون الفحش في الأقوال والأفعال.

هذا الحديث دليل على ضعف الإيمان. والواجب -وهذا أحد المقاييس المهمة لأنفسنا وليس للناس- حينما نجد أنفسنا يسهل على لساننا -والعياذ بالله- أي كلمة بذينة فاحشة فهذا دليل على ضعف الإيمان، هذه مؤشر لضعف الإيمان، وإذا بدأت تصبح صعبة فمعناه أن الإيمان أصبح قوياً. وهذا له علاقة بالتربية؛ فقد يكون الإنسان قد تربى في وسط بذيء -وهذا يمكن أن يحصل

من والديه أو المجتمع أو المدرسة أو الحي- ولكن نحن نتكلم عن عاقل عرف أنه محاسب يجب أن يربي نفسه. وقد ورد أن ابن عمر حينما سمع هذا الحديث ما سُمع منه لعن أبداً، وقيل: "ما لعن إنساناً أبداً إلا إنساناً واحداً، عبداً له أغضبه فلعنه ابن عمر"، وقبل أن يكمل الكلمة تدارك نفسه فأعتقه حُرّاً؛ كفارة للكلمة التي كانت ستخرج من لسانه، وهذا إشارة إلى أن الإنسان يربي نفسه. نحن نخرج من تربية الوالدين وآثار المجتمع إلى التربية الذاتية التي يربي فيها الإنسان نفسه بمفاهيم الإيمان، ولا يتعلل بأنه وجد نفسه في مجتمع كذا وكذا.

هنا تبقى مشكلة بسيطة؛ أن هنا بعض الكلمات لا تكون فاحشة وبذيئة في مجتمع، وتكون فاحشة وبذيئة في مجتمع آخر، ويأتي في هذا المقياس الشرعي: هذه الكلمة إذا كانت تأتي بمعانٍ باطلة اجتمع الناس على أنها مسبة أو أنها كلمة قبيحة نعتبرها من الكلام البذيء حتى لو لم يعتبرها مجتمعي بذيئة، ونحن نتكلم هنا عن الوسط الذي يعيشه الناس وليس المجتمع الإسلامي كله.

نبدأ بالحديث الذي يليه، نرى هذين الحديثين ونرى الكلام عن حسن الخلق ويقابله سوء الخلق، وكأن الذي يمثل سوء الخلق هو الشخص الفاحش البذيء؛ حسن الخلق في جهة، وسوء الخلق يمثل الإنسان بلسانه. أمور كثيرة اسمها حسن الخلق؛ من الكرم والحلم والصفح والعفو، وسوء الخلق تمثل في كلمتي: (الفاحش البذيء)، وكأن هذا الذي يجري على اللسان يمثل الإنسان، وهذه على القاعدة التي مرت معنا المفهومة المعروفة: أن "الألسنة مغاريف القلوب"؛ فإذا كان الإنسان سيئاً في تفكيره وفي انفعالاته سيظهر هذا على لسانه، وإن كان يربي نفسه ويردها ويكون حازماً معها سيظهر هذا أيضاً على لسانه. سنرى أولاً حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه-:

قال: وله -أي: للترمذي- وصححه عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- مرفوعاً: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

نبدأ من عند كلمة: «**المؤمنين**»، وهنا سنخرج غير المؤمنين مهما حسن خلقه وصح حاله من جهة الأخلاق. أي أحد يقول: "هؤلاء كفار وأخلاقهم حسنة"، فلن نناقش هذه العبارة التي هي بنفسها باطلة، ولكن موضوعنا أن هذا الحديث يخص المؤمن؛ غير المؤمنين لا يدخلون في هذا الموضوع، وليس لأحد أن يقول: "إن هذه الأخلاق الحسنة ستكون مثقلة لميزانهم"؛ لأن الميزان قاعدته في الأصل ستكون الإيمان، ميزان المؤمنين غير ميزان الكافرين. الأول مما يُوضع في الميزان الإيمان، والأشياء تثقل بسبب الإيمان؛ فحينما تسمع عن الصحابة الكرام في وصفهم وفي وصفنا، هناك أعمال يمكن أن يعملها الإنسان أعظم من أعمالهم من حيث الكيفية ومن حيث المقدار، ومع ذلك حينما تُوزن في الميزان تكون أعمالهم الأقل في الكيفية وفي الصفة أعظم من أعمالنا. وهناك حديث مشهور عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن صدقتنا: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»⁽²⁹⁾؛ كأنك تغرف بكفك شيئاً من الحبوب، لو

⁽²⁹⁾ أخرجه أبو داود (4658).

الصحابي تصدق بهذا وأنت تصدقت بمثل جبل أُحُد ذهبًا ما تبلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه! نوعان مختلفان وكميتان مختلفان تمامًا، ومع ذلك كان الأمر في صالح الأقل في الصورة؛ أنت ستصدق بذهب وهم يتصدقون بحبوب، أنت تتصدق بمقدار جبل أُحُد وهم يتصدقون بمقدار حفنة (المُدَّ)، ومع ذلك صدقتك التي هي جبل وذهب ما تبلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه! والسبب أنه ليس أول ما يُوضع هو هذه الأعمال، ما يسبق هذه الأعمال هو الإيمان؛ ولذا حينما تُشق القبور ويُحصّل ما في الصدور، هذا هو ما يُبتدأ به: اليقين الذي في القلب. الأمر الآن غائب؛ إذا كان قلبك مليئًا باليقين أن هذه حبة التي تتصدق بها ستجدها عند رب العالمين، وهذه الخطوة التي تخطوها تتصور كم لها من مكان عند رب العالمين؛ أنت في الدنيا ولكن كأنك موجود هناك، كأنك تنتظر الأمر القادم، هذا اليقين هو ما يسبق أي عمل.

نضرب مثالًا لنتصور منه المسألة: شخص فقير في حاجة شديدة عليه ديون، ثم بُشِّرَ أن قريبًا له في أرض ما قد تُوفي وأبقى من المال الكثير، وهذا الفقير هو الوريث الوحيد له، إلا أن الإجراءات لتنتهي تحتاج إلى

سنة لتأتيك الأموال. في الأمس كان شديد الحزن، واليوم سمع هذا الخبر وعرف أنه بعد سنة ستأتيه الأموال؛ طوال السنة ستكون سعادته واستقراره النفسي جيدًا؛ لأن عنده آملًا أنه بعد السنة سيأتي هذا الأمر، والأمل أعطاه له البشر ووعد الناس، وهو يعرف أن له قريبًا وأنه مات وأنه هو المستحق، كم يشعر هذا بالطمأنينة! لماذا؟ لأنه متيقن أن المال سيأتيه وأنه هو الوريث الوحيد، وهذه الدولة ليس فيها لعب ستأتي بالمال. هذا إذا كان وعد الإنسان للإنسان يدخل عليه السرور، فكيف بوعد الرحمن للإنسان؟ كيف يكون حاله؟ هذا هو الفرق بين الناس: أنه يسمع الوعود بين الناس وهو متيقن ويعيشها ويتعامل معها، ليس مثل من يسمع الوعود ولا يعيشها ومن ثم لا يتعامل معها.

هذا الحديث ضروري أن يسقط في القلب وليس في الأذن فقط؛ يجب أن تفكر في الميزان، إذا فكرت في الميزان ستفكر أن هناك أعمالًا أثقل من أعمال، فأنت كأنك تزن الأمور فتقول: "سأختار ما هو أثقل، هو الأولوية عندي"؛ لأنك تفكر في الميزان. نفترض أن عندك موقف بر الوالدين وقيام الليل ازدحما في نفس

الوقت؛ الأم تحتاج إلى رعاية وهذا هو وقت الصلاة، إذا ازدحما وأنت تفكر في الميزان، فبرهما سيكون أعظم في هذا الموقف، ولو كان برهما عبارة عن الجلوس أمامهما وأنهما ينظران إليك ويستأنسان بوجودك، هما أمامك وأنت لا تفعل شيئاً. لا تخطئ في داخل نفسك ولا تزنها بشكل غير صحيح. هذا الكلام سيفهمني أنني أولاً مشغولٌ جداً بالميزان؛ أول الكلام: أنت مؤمن أكثر ما يشغلك الميزان الذي سينصب، والشيء الثاني الذي يشغلك: ما هو الأثقل؟ أول ما تفكر فيه هو اليقين. فهمت أن هناك ميزاناً سينصب وأول ما سيوزن الإيمان، هنا من إيمانه أثقل ومن إيمانه أقل: اليقين؛ نسأل الله أن يرزقنا وإياكم والمسلمين أجمعين اليقين.

كأن الإيمان يكون عامّاً ثم تعيش إلى أن يصبح الشيء كأنه أمام عينيك، يورثك الطمأنينة وانسراح الصدر، وكلما أتت آلام تقول: "ليست هذه دار الاستقرار وإنما هذه دار المرور"، ويبقى هذا الشيء متكرراً في ذهنك حتى تتعامل مع الآلام والأحزان والأمور كلها بهذه النظرة، وكلما تجمع في قلبك كيس

من الهموم تفرغه على هذا المعنى: "أن اختيار الله أحسن من اختياري، وما يأتي من الله كله خير"، وكل هذه الكلمات التي تطبب قلبك بها ولما تقع تقع هادئة وأنت مرتاح. هذا هو اليقين: أن يؤمل الإنسان نفسه فيما هو عند رب العالمين، أن يبقى الإنسان طامعاً في رب العالمين، هذا هو الإيمان. وهو أثقل شيء في الميزان، ثم هو يثقل كل شيء بعده، وأثقل شيء يمكن أن يوضع في الميزان بعد الإيمان هو حسن الخلق. إذا أصلحك الميزان فاعلم أن هذا الإيمان المفترض أن يأتي للإنسان بحسن الخلق ويُعالج في قلبه الأمراض، يسلط الإنسان الإيمان على الأمراض لتتعالج، وفي النهاية يخرج منه حسن الخلق. ونضرب مثلاً في الحديث الذي يليه: أول ما يشغلنا هو الميزان، وتأتي المسألة الثانية وهي الكلام عن الإيمان، إذا اهتممنا بالميزان والإيمان نفكر ماذا يفعل الإنسان في الإيمان يوم القيامة من حسن الخلق، «وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ» الذي يتكلم بالفحش.

قال: ولمسلم عن عائشة -رضي الله عنها- مرفوعاً: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

المقصود: لنبدأ في كون أن الإنسان يبدأ يربي نفسه بالإيمان فيعامل الخلق بالرفق؛ الرفق مع نفسك والخلق إذا وضعته في أي شيء سيزينه، أما خلافه؛ فنزع الرفق من أي شيء يشينه. المفترض أنك بسبب الإيمان تكون رقيقاً في كل شيء، الرفق مع نفسك ومع الخلق سيزينك وسيأتي بحسن الخلق. في كثير من الأمور يكون الإنسان يريد حسن الخلق، يفكر في ميزانه ويريد أن يفعل إيمانه ويحسن بإيمانه أخلاقه ولكن لا يعرف كيف يأتي بحسن الخلق، والحديث الثاني قال لنا إن مفتاح حسن الخلق: الرفق.

أنت طالب علم ترقق بنفسك وقتما تتعلم؛ بحيث إن هذا الرفق نتيجه أن تعتني بالعلم بهدوء، فلا تأتي مرحلة تضغط فيها على نفسك بصورة ما توصلك إلى الحق، انظر إلى قدراتك وتعامل معها؛ هذا نموذج في الرفق مع النفس.

وهناك الرفق مع الخلق الذي هو عنوان حسن الخلق؛ بمعنى: أن الإنسان إذا رأى الناس عبارة عن مفاتيح لأبواب الخير، ساجد من وراء الجار والوالدين

والصحبة أبوابًا للخير، يفتح أبواب الخير بالرفق، يكن رفيقًا وكلما كان رفيقًا كلما كان حسن خلقه أفضل. والشاهد أن ثَقَلَ ميزان المؤمن إنما يكون بحسن الخلق، وحسن الخلق في الحديث الذي يليه مفتاحه الرفق؛ الرفق في الكلام والمعاملات، ويكون في أن تكون رفيقًا مع نفسك.

من المصطلحات المتداولة الآن والمشهورة كثيرًا: (جلد الذات)؛ يجد الإنسان نفسه أخطأ في حق الرب -سبحانه وتعالى- أو في حق الناس، فالواجب عليه أن يتوب ويستغفر، ولكنه طوال الوقت يعاتب نفسه حتى تُشَلَّ نفسه وتصبح غير قادرة على القيام بالعمل! الشريعة لا تأمرك بذلك؛ هذا آدم -عليه السلام- أخطأ فتاب وتاب الله عليه، وهؤلاء الثلاثة الذين خُلفوا من صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- أخطؤوا وتابوا فتاب الله عليهم، بل قد حصل في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- حالات من الارتداد ثم عادوا إلى الإيمان وقبلهم الله، وحصلت الفحشاء وأُقيم الحد والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ». المعنى: أن هناك ألمًا

يكون من الذنب يدفع إلى التوبة، فإذا حصلت التوبة يرجو الإنسان أكثر فأكثر أن يتوب الله عليه ولكن يكون رقيقاً بنفسه بحيث إن قواه لا تُشَلُّ. فالرفق مع النفس والخلق مفتاح لحسن الخلق بحيث إن أصل الأمر أن يبقى الإنسان محباً للخير ومبغضاً للشر، ولكن حينما لا يكون رقيقاً مع نفسه حتى الخير يمكن أن يكرهه؛ لأنه عاش أياماً وآلاماً فيرى أن الانفلات أفضل له. وهذا عند أناس كثيرين نجد أن الناس سائرون على الصراط المستقيم ويمسكون بالأمر بقوة ثم نرى أنهم قد انفلتوا تماماً، والسبب في هذه الانتقالة الشديدة أنهم ما استعملوا الرفق! الرفق يكون سيراً على الشرع وفهماً لأطرافه؛ يقع الذنب فيكون الإنسان قد بَعُدَ عن باب الله وهناك حل مباشر وهو التوبة، فلا تجلد نفسك جُلْدًا يمنعها من باب الله، ماذا ستفعل النفس بعد ذلك؟ ستكره الطريق والشيطان يتسلط عليها. هذا بالنسبة لنفسك، وهنا الشاهد الأهم مع الخلق، وفي كل موطن يكون للرفق شأن.

نعود للحديث الأول، عرفنا هذا الشق ويأتي الشق الثاني الذي يبين لنا الأمر: «وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْفُحْشِ».

بهذا نرجع للتأسيس الأساسي، حسن الخلق واسع وأمام هذا الواسع كله يأتي الفحش والبذاءة، كأن الفحش والبذاءة يقابلان كل أنواع حسن الخلق، وإذا وجد الفحش والبذاءة فبقية مكارم الأخلاق كأن ليس لها قيمة، وهذا الأمر نلاحظه، لو كان الإنسان كريماً وأدخلنا بيته وهو فاحش بذيء لا يطيب لنا كرمه. كأن الفحش والبذاءة الخلّ الذي يصب على العسل فيفسده مهما كان العسل جيّداً، يذهب حسن الأخلاق كأنه غير موجود وهذه علّة عليّلة، فحينما يجد الإنسان نفسه بهذه الصورة يغير هذا اللسان بزيادة الجهاد والدعاء.

وقبل أن ننتهي من هذا الباب يجب أن نتفق كيف نصل إلى هذه النتيجة، وعرفنا أن كل ما يفتح لنا باب البذاءة هو نزع الرفق، فيصبح الإنسان غضوباً ومتعجلاً ويصرّ على رأيه إلى آخر ما نتصور، وحينما يصير الإنسان مصرّاً على رأيه ويصبح غضوباً يعبر عن غضبه بلسانه، لذلك نرى أبناءنا حينما يتفاهمون معاً، لم يشرح له أخوه المسألة بعدُ فيسبّه فوراً، ولو كان هنا رفق لشعر أنه يجب أن يشرح لأخيه أكثر، لكن هو عنده شعور بالعجلة فيشعر أنه غبي لا يفهم، فمباشرة

يسببه في الكلام، فقد الرفق فتحصل منه البذاءة. عرفنا أن الحديث الثاني إنما هو بيان للحديث السابق.

الحديث الذي يليه:

قال: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنَ لَيْنٍ سَهْلٍ»

هذه الصفات تبين من سيكون صاحب أخلاق حسنة، ومن ثم بعيداً عن البذاءة التي هي موضوعنا الأساسي، والمقصود أن هذا لا يدخل النار ابتداءً؛ لأن دخول النار فيه مسألتان:

- الدخول والخلود والعياذ بالله.

- والدخول والخروج في حق المؤمنين.

وهنا بمعنى: أنه لا يدخل النار ابتداءً، كأن النار تحرم عليه نهائياً، لا يدخل ويخرج. المؤمن ضعيف الإيمان صاحب المعاصي يدخل النار، وإذا دخل يخرج من النار وهذا حكم الله، والكافر يدخل النار ولا يخرج منها وهذا حكم الله، والمؤمن إذا عمل أعمالاً معينة تحرم

عليه النار، ابتداءً لا يدخلها بل يدخل الجنة مباشرة.
نسأل الله من فضله.

هذه في الأصل طباع ولكن الإنسان يمكن أن يدرّب نفسه عليها، وهذا أسلوب تعليم يُشوّق فيه النبي الصحابة، وهو كثير في كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول لهم: «**ألا أخبركم؟**» ينبههم تنبيهًا يجعلهم مشتاقين لهذه الصفات.

نبدأ بـ«**قريب**»، يعني: قريبًا من الخير بمعنى: مبادرًا للخير يعتني به، يعني يرى الدنيا حوله فرصًا للخير، عينه تنظر للأمور على أنها فرص للخير؛ هنا مثلاً إكرام الكبير، وهنا العطف على الصغير، وحتى لو كان في مصلاه في الحرم ووجد الناس ضائقين وهو يعرف أن هذا الباب زحام والناس لا يعرفون فيرشداهم للباب الأقل ازدحامًا، يحل المشكلة، عينه ترى أن المواقف كلها عبارة عن مواقف للخير، يشعر أن الوضع حوله عبارة عن فرص للخير، هذا لا يعيش لنفسه بل يفكر في الغير، كما اتفقنا في الكلام السابق على أن الغير مفتاح للخير، كأن الناس أمامه عبارة عن أبواب يفتحها

بالرفق ويدخل على الخيرات الكثيرة، كل الناس عبارة عن أبواب للخير.

هذه كلمة «**قريب**»، يعني يرى الدنيا حوله فرصاً للخير فيبادر لها؛ لذا المبادرة والتعاون قيم إسلامية عظيمة لا نستوردها من أحد، بل الله أمر بها.

«**هَيِّنْ**» كلمة صعبة في الشرح، هذه من أصعب المفاهيم التي يمكن أن يفهمها الإنسان إلا أن تكون عنده حالة من الاتزان، ولكن نضع ثلاث صفات أساسية للهين:

الصفة الأولى - وأهم شيء في صفاته -: أنه لا يريد إبراز نفسه، لا يكون هيئاً إلا إذا كان لا يفكر في إظهار نفسه، ومشكلة المشاكل عندنا أن الناس يريدون أن يبينوا لك أنفسهم، وحتى يُخرج نفسه من هذا كله لا بد من أن تحصل عنده حالة من الشدة والقسوة ليجد نفسه في وسط الزحام. الهين يبعده الناس فلا يجدون له عِظَم مكان، ففي البداية ليكون الإنسان هيئاً على الناس لا يعظم ذاته ولا يريد أن يظهر على الناس وأنهم يجب أن يسمعوه ويعرفوه، أو أن له حقوقاً يجب أن يعطوه إياها.

النفس لا تتحمل حينما نقول "هينًا" خصوصًا حينما نقول: "حقوقًا" في الثقافة المعاصرة، والكلام عن الحقوق الذي به أخذ الناس حقوقهم وحقوق غيرهم، ووصل الحال في طلب الحقوق إلى التطفيف، الناس أصبحوا يأخذون حقوقهم ولا يعطون غيرهم الحقوق، هذا لا يفكر في تعظيم ذاته وإبرازها ولا في الناس وأين أكون أنا وعند من أكون، ولا يفكر أن يسمعه الناس ويعرفوه، ونحن نرى الشهرة، كل الأمور بالتوازن، نقول: "هين ولا يطالب بحقوقه"، لكن المحافظة على الكرامة الإنسانية شأن آخر، نتكلم عن أنه لا يريد أن يبرز.

الصفة الثانية: أننا لا نجد من أهل الإصرار والعناد أبدًا، فيما يُذكر عن الشيخ محمد بن إبراهيم -قبل الشيخ ابن باز رحمه الله- أنه أتى شباب فدخلوا عليه وهم فرقة خارجية -في بداية الخروج- ففهم أنهم متحمسون وكثيرو كلام ويسألونه عن رأيه في كذا وكذا، ولحظ فيهم مشاعر الهجوم، قالوا له: "ما رأيك يا شيخ في كذا وكذا؟" قال: "من لا يُطاع ليس له رأي، لا تسألوني رأيي وأنتم لن تأخذوا به". أعادوا عليه، فقال لهم:

"تَقَهَّوْا، ومن لا يطاع لا رأي له، ما لكم عندي إلا القهوة". بمعنى: أنه فهم أنهم مصرون على رأيهم ومتشبثون به، وآتون يتكلمون لا يسمعون، فكأنهم يقولون: "لن نأخذ برأيك". وهذه الكلمة مشهورة للشيخ محمد بن إبراهيم، هذا معنى مفهوم؛ ما دمت لن تطيعني فلماذا تسألني؟ قال له الشيخ صالح: "لماذا قلت هذا؟" قال: "لأنهم يريدون أن يسمعوا الرأي ويتفكها به، ويقولون: سألناه ورددنا عليه وتكلمنا"، يريدون إبراز أنفسهم، فيعودون لنفس المشاكل.

إذا الهين ليس صاحب عناد وإصرار حتى لو كان معه الحق، لذلك بشر النبي ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، هذا يترك المناقشات وإن كان محقًا، فكيف بالذي يريد أن يثبت رأيه بأي صورة؟ هناك من يقول: "نحن على الحق"، حتى من هو على الحق المفترض أن يكون عرضه للحق في الوقت المناسب وبالصورة المناسبة، وليست الصورة التي يبرز فيها ذاته، وهذا ما يقوله الشيخ ابن إبراهيم؛ كأنهم يقولون له: "هذا رأينا والمفروض أن تعطينا رأيًا يوافق رأينا وإلا ما لك رأي"، فهم آتون يقولون رأيهم لا

ليسمعوا منه. حتى لو كنا أهل حق، عرض الحق له أدبه وله طريقته، يجب أن يكون هناك رفق حتى في عرض الحق الذي معه.

الصفة الثالثة في الهين: أنه يدفن عيوب غيره، ليس بالمُعَاتِب الذي يبقى يقول: "قلتم وقلنا." نتصور في الحياة العامة؛ لو عندك قريبة كلما ذهبت إليها تقول: "من زمان لم تكلمينا ولا تدرين عنا"، المرة القادمة ستحمل همّ هذا الكلام، فتزيد المدة الزمنية التي تنقطع فيها عنها بسبب كثرة العتاب. عندنا أمثلة كثيرة باطلة مثل: "العتاب صابون القلب"، العتاب إنما يقلل درجة الهين من الناس، إذا وصلته استبشر بك وإذا انقطعت عنه اعتذر لك. الهين لا يريد إبراز ذاته ولا يجادل ولا يعاتب الناس، حتى حقوقه لا تحمل همها، إن أعطيته حقوقه شكرك وإن لم تعطه عذرك.

وهذا لا نريد أن نقول إنه قليل في الناس، ولكن نسأل الله أن يبلغنا أن نكون هينين لينين على الناس؛ لأن هذا مقصد عظيم، هذا سبب لأن تحرم عليك النار.

المشاكل أنك أحياناً تشعر أنك هين، والسبب أن ما عندك ذاكرة جيدة عن ذاتك ولا عندك تفسير لتصرفات جيدة لمعنى الهين، ولكن كلما استطاع الإنسان النجاح في ضبط نفسه وأفكاره ورود أفعاله ومراقبتها؛ كلما اقترب من الأفعال الحسنة. المشاكل أن الإنسان حينما يسمع هذا الكلام يفكر في غيره، لا تفكر في غيرك ولا تسقط الكلام على غيرك، فقط فكر في نفسك لتصل إلى هذا الحد. كل الناس يرون أنفسهم هينين، ولكن في الواقع الناس شديدي التمسك بحقوقهم، قليلو العفو عن غيرهم، وقليلو النسيان للعتاب.

السلام عليكم ورحمة الله

اللقاء الخامس عشر

29 ربيع الآخر 1441

تابع باب البذاء والفحش
باب ما جاء في الكذب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا لقاءنا الأخير في هذا الفصل الدراسي، نختم اليوم باب البذاء والفحش، وهو داخل تحت أبواب (كبائر اللسان)، ولا زلنا في كل لقاء نكرر نفس القاعدة: لسان الإنسان والكلام نعمة من رب العالمين، فبه يرتفع الناس، وبه الذاكرون لرب العالمين يكونون ذاكرين، وبه يكون الشاكرون شاكرين، بهذا اللسان يعبر الإنسان عما في وجدانه من الإيمان واليقين، وبه تكون كلمة (لا إله إلا الله) التي يرغب العبد أن يُختم له بها، وبهذا اللسان تأتي التوبة والاستغفار، فهو بنفسه نعمة، الحمد لله، فبقاؤه على الإنسان نعمة، إلا أن الناس -كالعادة- نفس أداة النعمة يمكن أن تتقلب عليهم فتصبح نقمة،

ومن ثم يكون سخط الله، فباب البذاء والفحش يناقش هذه المسألة.

كل هذه الأبواب تحت كبائر اللسان، وباب البذاء والفحش خاصة من دون الأبواب كأنما يعلمنا القواعد التي تجعل هذا اللسان منّة علينا وليس نقمة.

نتذكر الآية الأولى مرة أخرى، ولكننا سنقرؤها من جهة أن هذا النص يجعلنا مستعملين للسان في مكانه الصحيح، لو بدأنا بآية الفرقان: **(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)**؛ عرفنا هذه القاعدة: أنك لتحفظ لسانك لا تشهد مجالس الزور، وإذا مررت بجماعة ارتفعت أصواتهم وكثر شغبهم فمرّ عليهم مرورًا لئلا تدخل وتقول كلمة، لا تجعل نفسك مبذولًا في أي مكان، إنما كن في مكان الخير، لتقول خيرًا كن في أماكن الخير، لتقول خيرًا صاحب الأخيار، لتقول خيرًا تحاش الأماكن التي فيها زور أو فيها لغو. بهذا يكون الجو المحيط بك خيرًا.

هناك أناس خيرون وطيبون ولكن ألسنتهم غير منضبطة، من الممكن أن يقولوا كلامًا سيئًا، أو

غضوبون، هذا مجلس هذا يثير هذا وهذا يغضب فيرد عليه، إذا مررت بهذه المجالس التي يستفز فيها الناس بعضهم بعضًا ويرد بعضهم على بعض ويغضب ويطيل لسانه، وإن كان الناس خيرين؛ ولكن عليك أن تمر بهذا المجلس كريمًا، بهذا نكون مررنا بالقاعدة الأولى: **لتقول خيرًا اجلس في مجالس الخير**؛ لأن في مجالس الخير لا يقول الناس إلا خيرًا، أو قسها بالعكس: المجلس الذي فيه خير هذا مجلس الخير، أما أول ما يكون هناك كلام سيئ بذيء أو كلام غضب أو يستفز الناس بعضهم بعضًا؛ فهذه مجالس لا تصلح للجلوس فيها.

ننتقل للنص الثاني، القاعدة الثانية: **يجب أن تربط كلام لسانك بدرجة إيمانك، وعليك أن تعلم أن هذا يعود عليك لا على غيرك، وفي الحديث: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»** وقد تناقشنا في هذا الحديث بالتفصيل.

القاعدة التي سنخرج بها من هذا الحديث: أنك حينما تجد لسانك زاد في الانفلات وأنت عرفت الحق -لا لم تعرفه سابقًا، وليس أول مرة تعرف أن هذه الكلمة سيئة

ولا يجب أن تخرج من لسان المؤمن، عرفت أن اللعن والكلام السيئ والدعاء على المؤمنين من الكلام السيئ- فإذا وجدت نفسك لا تستطيع تَمَلُّكَ لسانك؛ فراجع إيمانك؛ لأن المؤمن لا يخرج منه مثل هذا، وإذا ضعف الإيمان يمكن أن تخرج مثل هذه الكلمات، ودليلنا على ربط هذا بهذا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ...» يعني ما دام الإيمان قويًا تكون النتيجة أن ينضبط اللسان، وإذا ضعف الإيمان ضعف ضبط اللسان، فيصعب عليك ضبط لسانك. وفي كل مسألة تجد نفسك قلَّ صبرك وحلمك وكثر تشكيكك وعدم رضاك بالواقع الذي تعيشه؛ راجع إيمانك، إذا ازدادت إيمانًا ستعود لك هذه القيم الإسلامية، وإذا ضعف إيمانك تضعف هذه القيم.

هذا الباب كأنه يعطينا قواعد لضبط السنتنا: لا تعاشر الناس الذين كلامهم كله أو غالبه زور، أو فيه السب كثير، لا تشهد هذه المجالس أو تكون من أهلها؛ لأن مثل هذه المجالس تُعدي مباشرة، تنتقل هذه العدوى وتنتقل أكثر لو كنت ضعيفًا في الإيمان، والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. تأتي لحظات على الإنسان

ينقص إيمانه، لذا كان من كلام السلف: "إن من فقه المرء أن يعرف أين هو وما هو، أن يعرف هل هو في زيادة أو في نقص من جهة الإيمان." من فقه المرء بنفسه أن يشخص نفسه كل يوم: هل زاد إيمانه أو نقص؟ وهناك مؤشرات؛ منها: اللسان، وعدم التحلي بالقيم الإسلامية من الصبر والرضا والخوف من الله والتقوى. يجد نفسه يمكن أن يهمل أشياء، أول ما يجد نفسه بهذه طريقة؛ يشرب من نهر الإيمان مباشرة ويغتسل به، ويستغفر ويتوب ويتصدق ويعمل أعمالاً صالحة، ويزيد ركعتين ويجمع قلبه في الفرائض، ويقرأ صفحة من القرآن، ويفعل أفعالاً تزيده إيماناً.

الحديث الثالث في الباب يقول فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ» تبين لنا أن الناس قسمان: حسن الأخلاق، والفاحش البذيء الذي يتكلم بالفحش. معنى ذلك: أن علامة سوء الأخلاق: بذاءة اللسان، وعلامة حسن الأخلاق: ضبط اللسان، إذا كان هنا حسن الأخلاق ويقابله الفاحش البذيء الذي يتكلم بالفحش؛ يصبح سوء

الأخلاق عنوانه اللسان. لتعرف حالك من جهة حسن الإسلام انظر لحال لسانك، فإذا كان حال اللسان منضبطاً ويقول الكلام الحسن؛ يكون قد دل على حسن الخلق، وإذا كانت الحالة الثانية تُصنّف من سيئ الأخلاق. هذا الحديث يصنف لك نفسك تحت حَسَنِي الأخلاق أو تحت سَيِّئِهَا.

الناس كلهم يرون أنفسهم طيبين وحسني الأخلاق، أتى هذا الحديث يقول: "حسن الأخلاق يجب أن يظهر حسن أخلاقه على لسانه، فيحبس نفسه عن الكلام السيئ ويقول الكلام الحسن"، علامة حسن الأخلاق: إيمان في القلب وحسن كلام على اللسان. في كثير من الأحيان تكون مقاصد الإنسان جيدة لكن كلماته غير جيدة، ليحسن وضعه يبذل جهده ليحسن كلماته.

وأتى الضابط المهم في الحديث الذي يليه، نجمعهما معا ليكون الكلام واحداً: أنت لتكون حسن الأخلاق عليك أن تبدأ بالرفق، الحديث الذي يليه: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» ، كل قضيتنا لساننا، هذه هي المشكلة، وعرفنا أننا لا

يجب أن نصاب من لسانه بذيء، ولا نجلس مجالسه لأن هذا يأتي بالعدوى، وعرفنا أن علينا أن نبذل جهودنا لنزيد إيماناً، فكلما ازددت إيماناً كلما ضبطت اللسان، فكن حسن الأخلاق؛ لأن البذاءة والكلام السيئ لا يخرجان إلا من سوء الأخلاق.

ما مفتاح حسن الأخلاق؟ الرفق، أن تكون رفيقاً في الشأن كله، حتى وأنت تعامل نفسك يجب أن تضع ميزاناً إيمانياً صحيحاً تكون به رفيقاً بنفسك ولا توصلها إلى حالة تنفلات عليك بعد ذلك. هذا موضوع كبير من الصعب ضبطه في هذا المجلس، لكن باختصار: ليكون اللسان منضبطاً ويقول الكلام الحسن ولا يكون مجرد تمثيل؛ فهناك أناس كثيرون يأتون بكلمات كلها ذوق وأدب، لكن ما إن يضغط عليهم ضغط بسيط أو قوي إلا وتنكشف صفحتهم الحقيقية، ويقولون كل الكلام الذي لا يخطر على البال، ويكون عذرهم: "أنهم أغضبوني واستفزوني وأوصلوني إلى هذه الحالة العالية!" لا نريد هذا الكلام الجميل الذي يكون من وراء الكذب، تتستر كذباً وزوراً ولا تكون حسن الأخلاق، ليتعدل لسانك يجب أن تكون أخلاقك حسنة، تحاول أن تكون من أهل

العفو، وبعيدًا عن الحقد والحسد، وتأتي بمكارم الأخلاق، إذا أتت مكارم الأخلاق سهل على الإنسان أن يكون لسانه فيه الكلام الطيب الدال على حسن أخلاقه.

الناس يمكن أن يلبسوا لباسًا يبين أن أخلاقهم حسنة ويقولون كلامًا غاية في الذوق طالما أنه ليس هناك ضغوط، وأول ما تأتي الضغوط تنكشف حقائقهم، وإذا خاصم وقتها فجر، وإذا تكلم أو عاتب حصل منه هذا. والمراد الشرعي أن تحسن أخلاقك حتى تبلغ درجة تستطيع فيها ضبط نفسك، أما أن تلبس لباس زور وتقول كلامًا لترضي الذوق العام وحتى لا ينتقدك أحد، وإذا ضغط عليك أحد تعود إلى حالتك الأولى؛ فهذا لا ترضاه الشريعة.

الفرق بين ضبط النفس والتمثيل: أمثل حتى لا ينتقدني أحد، ولا يعيب عليّ أحد شيئًا، لكن من يبذل جهوده ليضبط نفسه ويحسن من أخلاقه سيجد التوفيق من الله ويجد الكلام الطيب يسيرًا وسهلاً وخارجًا من قلبه، محتسبًا فيه وجه الله والدار الآخرة. هذا الإنسان يذكر نفسه دائمًا بالنصوص، لو كانت هناك كلمتان تعبران

عن المقصود يختار الأحسن رغبة في امتثال أمر الله: **(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)**⁽³⁰⁾ ، يختار الأحسن رغبة في تطبيق هذا النص.

مفتاح هذا: ارفق، كن رقيقاً في كل الأمور، إذا حصل عليك ما يضرّك لا تتسارع في الظنون وتجرّ الظن وراء الظن حتى تقول: "أكيد هذا المقصود"، فيحصل في نفسك من الغضب ومن الحقد ومن الألم ما يجعلك تنفجر انفجاراً يخرج منك الكلام السيئ. كن رقيقاً حتى في تفكيرك، حتى في تقييمك للأمور؛ **«إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»**⁽³¹⁾

بهذا نكون انتهينا من هذا النص وبقي علينا النص الذي توقفنا عنده المرة الماضية، نقرأه مرة أخرى ونقف عند (الهيّن).

قال: وللترمذي وحسنه عن ابن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعاً: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ**

⁽³⁰⁾ البقرة: 83.

⁽³¹⁾ أخرجه مسلم (2594).

بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنٍ لَيْنٍ
سَهْلٍ».

في المرة الماضية اتفقنا على من هو الذي يسمى
القريب: القريب من الخير المبادر له. واتفقنا على
الهيّن: الإنسان الهين، ووضعنا ثلاثة ملامح:
- هذا هين في تعامله وفي أخلاقه ومنطقه.

- لا يدخل مع الناس منافسة يريد أن يثبت نفسه،
- وأيضًا له صفة مهمة جدًا وهي أنه لا يجادل، إنما
إذا كانت عنده وجهة نظر يبينها وبعد ذلك يخلع
نفسه من إرادة إثبات رأيه، وقد مر معنا النص في
الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بشر
ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان
محققًا: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ
الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»⁽³²⁾.

المهم: أن صفات الهين، الناس اليوم على وجه العموم
يهربون من أن يوصفوا بها؛ لأنهم يتصورون أن (هين)
يعني سيتعرض للإهانة، ولا يدرون أن الله -عزَّ وجلَّ-

³²() أخرجه أبو داود (4800).

يرفع هؤلاء، خاصة والحديث الصحيح يبين المسألة بوضوح: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»⁽³³⁾، لكن الإنسان يمر باختبار في هذه الأمور، فإذا تعرض الإنسان لاختبارات، هو هين مثلاً وقابل سفيهاً، والسفيه نتيجة لأن هذا الإنسان هين تسافه عليه وأوصله إلى درجة الإهانة -أهان الهين- فهل يعتقد أن مثل هذا يحصل والله لا ينظر إليه؟! الله ينظر إليه وينظر للسفيه الذي تسافه عليه، وأنت قد بذلت جهدك أن تكون هيناً وتركت أن تدافع عن نفسك.

وقد ورد في الحديث المشهور أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبا بكر -رضي الله عنه- والرجل قد كان يسب أبا بكر، إلى أن رد أبو بكر -رضي الله عنه- عن نفسه، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره أنه في حال رده كانت الملائكة ترد عنه، فأنت لا تعتقد أن هذا ليس تحت سمع الله وبصره، لذا مثل هذا لا يكون إلا مؤمناً متأكداً مستحضراً في لحظة ما يكون اختباراً له: أنت هين وتحب أن تكون هيناً وستحرم النار عليك لأنك هين، فيأتي اختبار: هل أنت هين حقيقة أو تمثل أنك

³³ (أخرجه مسلم (2588)).

هين؟ أو أنه ما إن يضغط عليك أحد حتى تنكشف حقيقتك؟ لا بد أن تأتي اختبارات، فإذا تسافه السفیه أنت كن مؤمنًا أنه تحت مرأى الله ومسمعه، وإذا كان تحت مرأى الله ومسمعه وهو يحب منك أن تكون هينًا سيقابل هذا رفعة لا تعرفها في حياتك وبعد مماتك.

لذا لا بد أن نعرف أن من يرفعهم الله ويحبهم الناس لإيمانهم وتقواهم خاصة بعد موتهم إنما هو من آثار أنهم كانوا في حياتهم على ما يحب الله ويرضى، ومن أعظم ما يحب الله ويرضى أن يكونوا هينين. يخاف الناس أن يكونوا هينين لأن الهين عندهم يتصورون أن يكون سلمًا للإهانة.

مقصد الجميع أن تحرم عليهم النار تحريمًا أبدىًا، لا خلود بسبب الإيمان ولا دخول بسبب هذه الصفة؛ لأن المؤمن من الممكن أن يدخل النار، صحيح لا يدخلها خلودًا لكن يدخلها عقابًا على أمور، فإذا كان صاحب إيمان وهذه حالته: قريب من الخير، هين في أخلاقه؛ فلا تخف من أنك هين فيكون هذا سلمًا للإهانة، **أولاً:** كن واثقًا برب العالمين.

ثانيًا: يجب أن تعرف أنه يجب أن تكون هناك اختبارات.

فإذا مر مثل هذا وتصبرت مع حسن الخلق تكون النتيجة أن الله -عزَّ وجلَّ- يرفعك، وأهم شيء أن يرفعك عنده، والله -عزَّ وجلَّ- حينما يرفع العبد في السماء ويجعل له صيتًا، النصوص كلها تقول أنه كما يرفعه في السماء يرفعه في الأرض، وقد ورد في الحديث: «**ما من عبدٍ إلا و له صيتٌ في السماء، فإذا كان صيته في السماء حسنًا وُضِعَ في الأرض حسنًا، وإذا كان صيته في السماء سيئًا وُضِعَ في الأرض سيئًا**»⁽³⁴⁾ فأنت بهذه التصرفات تكون لك سمعة في السماء: تصبر وتقبل، ونعود للرفق الذي هو أساس الخلق الحسن، ترفق بمن أمامك، وكان من عادة السلف أنه إذا أغضبهم أحد يقولون: "بارك الله فيك"، يعني هذه الكلمة يريدون بها أن يوقفوا الكلام وفي نفس الوقت لا تأتي أي كلمة خطأ بل يدعو له أن يبارك الله فيه، ومثل هذا لا يأتي إلا من استحضار هذه النصوص أمام عينيه: أن لي سمعة في السماء، لا تخرب سمعتك في السماء لأن هذا يستفرك

³⁴() أخرجه البزار (9202).

فترد عليه وهذا يعصبك فتفعل كذا وهذا يقول لك كلامًا مسيئًا فتعطيه! «حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ قَرِيبٍ هَيْنٍ لَيْنٍ سَهْلٍ».

عرفنا معنى هَيْن، أما (سهل): فسهل في أموره وشؤونه، حينما تعامله لا تجده يعقد عليك الأمور بل هو سهل في أموره، تجد صفة في تعامل السهل في أموره: السهل في أموره أهم صفة عنده أنه راضٍ بما قسم الله، حينما يطلب منك أمرًا وما تيسر كما يريد بالضبط، حينما تأتي به وتقول: "لم يتيسر لي هذا"؛ يكون سهلًا في أموره، يقبل بما قسم له. هذا السهل إن كان يعامل خدمًا فهم في نعمة عظيمة؛ لأنه يأمرهم فإن لم يأتوا بالشيء على طريقة المطلوبة هو في حالة سهولة: سيأتيني ما قسم لي. وإذا عامل موظفين في ماله الخاص -وهنا فرق في السهولة واللين والهون في حقك أو في حق غيرك، أو في حق المسؤوليات التي تتحملها، وهاته الصفات في حقك أنت لا في حق المسؤوليات التي تتحملها-.

النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما خدم عنده أنس -رضي الله عنه- أخبر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال له في مرة على فعل فعله: "لِمَ فعلته؟"، ولا على فعل تركه: "لِمَ تركه؟" لكن حينما يأتي الأمر في حدود الله يخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ويخطب في الناس، حينما شُفع له في حد قال: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»⁽³⁵⁾ فالشأن مختلف في شأنه أو في شأن الناس.

المهم: أن النموذج الأكمل لهذه الصفات: القريب، والهيّن، والسهل؛ هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنت انظر في حاله وعند خاصة أهله كيف يتصرف، وكيف أنه قريب وهين وسهل، حتى أنه -صلى الله عليه وسلم- حين كسرت عائشة الصحن، قال -صلى الله عليه وسلم-: «غَارَتْ أُمُّكُمْ»⁽³⁶⁾، ويخبر -صلى الله عليه وسلم- أنه بقي صحن بصلح، ويأمرها بإعادة الصحن، وما كان ردة فعله ردة فعل الغاضب، وكيف لا تحترم

⁽³⁵⁾ أخرجه البخاري (3475).

⁽³⁶⁾ أخرجه البخاري (5225).

وجوده ولا تحترم طعاماً أُتي إليه؟! هذا كله من إشارات
القريب الهين السهل.

في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- النموذج الأكمل
لنتصور الشخص القريب من الخير الذي يبادر لفرص
الخير، واتفقنا على تفاصيل الهين في معاملاته، والسهل
أصل تفكيره أن ما قُسم له سيأتيه، وهنا نقصد في
المعاملات التي تخصه، فهو سهل لطيف قريب لا يعقد
عليك المسائل ولا يكثر الانتقاد ولا العتاب. هذه
الأوصاف إذا اجتمعت في إنسان فقد اجتمع فيه الخير
كله، وهذا من المؤكد أنها إذا وجدت لن يكون لسان هذا
بذيئاً أبداً؛ لأن هذه الصفات أتت لتقول لك: كيف تصل
لتصبح بعيداً عن البذاءة؟ بهذه الصفات: أن تكون قريباً
وهيناً وسهلاً، وبهذا كأننا نوصل أنفسنا لحالة من
الكمال. سنرى الصفة التي إذا وجدت وجد الشر كله،
قال:

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَرِيرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا: «مَنْ
يُحَرِّمُ الرَّفْقَ، يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

معنى ذلك: إذا كان مفتاح حسن الخلق الرفق، فيكون مغلاق حسن الخلق فقدان الرفق؛ «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ، يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ». فمن لم يكن رفيقًا لا تسأل عن غضبه، ولا عن كلامه، ولا عن أخلاقه، كل شيء عنده بالعنف! ومثل هؤلاء تكون منهم نبتة الخوارج؛ هؤلاء الذين يعيشون بهذه الطريقة، ويفكرون بهذه الطريقة: أنه لا شيء يصلح الناس إلا السيف، ولا شيء يؤدب الناس إلا أن تنفلت عليهم بلسانك، ولا يوجد إلا العنف ليسير معك الناس مستقيمين، حتى حينما يبيع ويشترى فهو بالعنف لا بالرفق؛ يبدأ باتهام البائع أنه كاذب وأنه ينصب عليه، ويبدأ بالشك فيه، لا رفق! تجد هذه النبتة حينما تكون موجودة في النفس، أن الناس لا يستقيمون إلا حينما تكون عنيفًا. هذا تفكير كثير من الناس: أن الناس لا يعتقدون أن لك شخصية إلا إذا كنت في حالة من العنف والشدّة!

هذا التفكير يحرمك الخير كله، وعلى سوء ظنك وتفكيرك تبطل بالذي يأتي مناسبًا لتفكيرك؛ تبطل بمن يأتيك ويفعل عليك ويفعل لك ويفعل لك.. وأما الثاني الذي معه الرفق، فيجب أن تحصل له اختبارات

وابتلاءات، لكن حينما تحصل اختبارات وابتلاءات فليبشر بعد هذا أن الله سييسر له كل أمر، وسيرزق هذا الطيب الطيبين والصادق الصادقين والأمين الأمينين، وإن لم يكونوا أمينين سيأتون خاصة في حال الهين اللين ويصبحون في حال أمانة، وفي حال يكونون هينين لينين؛ لأن الله هو الذي يلين القلوب ويقلبها، فإذا أقبلت على رب العالمين بالأدب أقبل الله عليك بقلوب الخلق. بهذا بين لنا الباب الأمرين سوياً: مفتاح كل خير ومغلاق كل خير، وهي الرفق وعدمه؛ من يُحرم الرفق يُحرم الخير كله. بهذا نكون انتهينا من هذا الباب ونستفتح الباب التالي بجملة مختصرة، وإذا لم ننتهِ عند العودة نعيد:

باب ما جاء في الكذب

نبدأ بمعنى الكذب: وهنا هو معدود من كبائر اللسان وهو انخرام الصدق. والصدق هو مطابقة القول للقلب وللمخبر عنه، فيصبح الكذب لسببين: عدم مطابقته للقلب، وعدم مطابقته للمخبر عنه.

مثال ذلك كذب المنافقين كما في أول سورة المنافقين؛ هم قالوا للرسول -صلى الله عليه وسلم-: "نشهد أنك لرسول الله"، هذا القول حق في نفسه لكنه لا يطابق ما في قلوبهم، هذا نوع من الكذب: أن يقول الإنسان كلاماً لا يطابق ما في قلبه، ومن أجل ذلك قال الله تعالى: **(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ)** (37)، حكم الله عليهم بالكذب لأن قولهم لا يطابق ما في قلوبهم.

النوع الثاني: أن يخبر الإنسان خبراً عن حال واقعة ويكون الخبر لا يطابق الواقع؛ مثلاً تكون في الدرس وتمسك بالجواب، ويسألك السائل: "كيف من احترام الدرس أن تمسك بالجواب؟"، فتقول: "أنا أكتب الدرس"، وأنت لا تكتب الدرس، فيصبح هذا الجواب لا يطابق الواقع، لكن قاله الإنسان لينفذ، وأكثر حال الناس على هذا: أن يكون الكلام لا يطابق الواقع. وعدم مطابقة الواقع لها صور: أن يحكي حكاية وهمية، أو يصف لك نفس الحدث الظاهر لكن التفاصيل الداخلية يكملها من عنده على حسب هواه ومصلحته، على حسب هل سينقذه هذا الكلام؟ تسأل ابنتك مثلاً عن سبب تأخرها

³⁷ (المنافقون: 1).

في المدرسة، فتقول لك قصة طويلة أحداثها صحيحة لكنها ليست سبب التأخير؛ كان من الممكن أن تمر على هذا كله وتصل ولا تتأخر، لكنها تجعل الأحداث كأنها سبب في التأخير، وهذا كله من النوع الثاني: عدم مطابقته للمخبر عنه بأي صورة.

الصدق والكذب في الحالتين إنما يشيران أولاً للإيمان والنفاق، وهذا هو الخطر! من يقول كلامًا كذبًا ليس في قلبه خاصة في معاني الإيمان، يكون هذا قريبًا من النفاق؛ كما أخبر -سبحانه وتعالى- في سورة البقرة عن هؤلاء الذين: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)** (38) هذا الكلام معجب وجميل، ويشهد الله على صدقه وعلى أنه يحب الإيمان ويريده، وفي الحقيقة قلبه خالٍ من الإيمان، بدليل أنه إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها. هذا الكذب إنما هو من علامات النفاق الأكبر.

الكذب الثاني وهو عدم مطابقته للمخبر به، هذا يتردد بين أن يكون كبيرة من كبائر الذنوب وبين أن يكون علامة من علامات النفاق الأصغر؛ فكل كذب يتعلق

³⁸ (البقرة: 204).

بالاعتقاد يكون أكبر، وكل كذب يكون صاحبه يظهر شيئاً مثل الأمانة وهو يبطن خلافه يكون من النفاق الأصغر.

نبدأ بالآية؛ قول الله تعالى: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (39) ؛ هنا الكلام عن المشركين حين افتروا وقالوا إن القرآن ليس من عند الله، وأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يعلمه بشر، فأصبح الكذب هنا من صفات الكافرين. الآية تقول إن الكذب أبعد ما يكون عن المؤمن، إنما هذه الصفة لأهل الكفر، بهذا فهمنا أن أهل الكفر ترتب على كذبهم عذاب أليم، وهذا يقرب معنى كيف أنها صفة المنافقين نفاقاً أكبر؛ فإذا كانت هذه صفة المشركين الذين لا يصدقون بالكتاب، فالمنافقون يشتركون معهم في هذه الصفات لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. وقوله تعالى: (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) (40) ، الكلام السابق نهايته تقرير أنهم كاذبون، والآية الثانية

(39) النحل: 105.

(40) البقرة: 10.

في سياق النفاق؛ فالكذب من صفات المنافقين لأن السياق سياق المنافقين.

وقوله تعالى: (وَيْلٌ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)⁽⁴¹⁾ ؛ ويل كلمة تهديد، والأفاك هو الكذاب المفترى، فهذا له من العذاب الأليم ما يدل على شناعة الكذب.

قال: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صَدِيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا».

المقصود بالبر أنه اسم جامع لفعل الخير؛ لذلك يقول الله -عزَّ وجلَّ- في سورة البقرة إن البر يتضمن أركان الإيمان وأسس الأعمال، وبذلك عُرف أن البر: اسم جامع لأعمال الخير، وهو يشمل عقيدة وعملاً كما في سورة البقرة، وكلما كان الإنسان صادقاً كلما اهتدى إلى أعمال الخير. وهنا يجب أن نعرف أن الصدق يكون مع الله، ومع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومع النفس،

⁴¹ () الجاثية: 7.

وهذا يحتاج إلى شيء من البيان أكثر. الصدق إذا هدى الإنسان إلى البر، فالبر بعد ذلك يهدي الإنسان إلى الجنة. كيف يصل الإنسان إلى هذه الحال؟ وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-: «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا»؛ إذا كُتِبَ عند الله صديقًا هداه الله لكل عمل خير، وأصبح نصيبه التوفيق لأعمال الخير. هذا حينما يصدق الرجل ويتحرى الصدق، وهذا معناه: أنه قد تكون هناك مواقف تلتبس فيها الأمور حتى في نفسك، وأنت تكون صادقًا مع ربنا، صادقًا في مقصدك من الصدقة وفي أعمال الخير، تبذل جهدك أن تكون صادقًا وأن تكون نيتك صحيحة، لكن تختلط عليك الأمور حتى في نفسك؛ هذه الكلمة مريحة جدًا لمن يبذل جهوده في أن يكون صادقًا، حينما يسمع أن الرجل يتحرى الصدق، بمعنى: أنه يبذل جهوده، وقد يصل إلى أن تتميز نيته بوضوح له ويكون صحيحًا لا يقصد أحدًا آخر، وقد تختلط عليه الأمور حتى في نيته ومقصده وهو يريد أن يكون صادقًا في ردة فعله وفي نصيحته وفي أعمال البر أيًا كانت، في صلته لأرحامه، لكن تكون المسألة ملتبسة، وهذا أمر

يفهمه جيداً من يحرر نيته ويبحث عنها صادقاً. هذه من الكلمات المريحة التي فيها سعة: أن الرجل يصدق ويتحرى الصدق.

نرى الثاني وهو موضوعنا: «وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ»، الفجور ضد البر؛ يجد نفسه تجر قدمه بعيداً عن أهل الإيمان وعن أهل الحق، يبدأ الأمر بآراء شاذة وفاسدة، هو ما زال في بيئة الإيمان لكن تحصل له آراء فاسدة وباطلة وتسحبه إلى أن يبتعد تماماً، والسبب أنه بدأ يكذب على نفسه وعلى رب العالمين. «وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ»، يبقى يفكر في ذهنه ويخطط للكذب، فيصبح من عاداته الفكرية أن يأتي بأعذار لنفسه عن أي خطيئة يرتكبها؛ يرتكب الخطايا وعنده أعذار، وأيضاً يتحرى أن يأتي بأعذار أخرى. من الممكن أن يقول لك: "لا تطلب مني أن أكون إنساناً مسالماً، انظر ما الذي حصل بين الحسين -رضي الله عنه- وبين معاوية -رضي الله عنه-!"; يأتي بهذا الشاهد التاريخي أنهما تقاتلا وحصل بينهما كذا وكذا، ليقول إنه معذور في تصرفه. من الممكن أن يكون قارئاً جيداً للتراث الإسلامي، يتعامل

مع النصوص الشرعية ومع التاريخ تعاملًا واضحًا جدًا وفاهمًا جدًا، لكن يأتي منه بشواهد يتحرى فيها الكذب على نفسه والكذب على ربنا، ولو لامه أحد فعنده من هذا الكلام ما يشبع، وعنده من النصوص وفهمها ما يوافق رأيه، فهو يكذب ويتحرى الكذب: «حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا».

المسألة الخطيرة جدًا هي الكذب الذي يوصل الإنسان إلى فقد الإيمان، الكذب الذي يكذب فيه الإنسان على الله وعلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-، الكذب الذي يريد فيه الإنسان أن يتبع هواه ولكن يريد أن يبقي صورته الخارجية صحيحة، يريد أن يوقع ما في نفسه من شهوات أو إرادات ويريد أن يأتي بأعذار في هذا لتبقى صورته تلمع أمام نفسه وأنه ما أخطأ وأن له عبرة في التاريخ؛ هذا هو الكلام الصعب العظيم. والثاني الذي لا يطابق الواقع بصورة أو بأخرى أيضًا مرتكب لكبيرة، هذا موضوع مهم ومن الضروري أن يأتي النقاش فيه، نكمل قراءة النصوص ثم يأتي نقاشها بعد ذلك.

قال: وفي الموطأ عنه: «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى
الْكَذِبَ، فَيُنْكَتُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ حَتَّى يَسْوَدَّ قَلْبُهُ،
فَيُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

الأمر واضح هنا؛ هذا الإنسان من كثرة الكذب يصبح
قلبه لا يتحمل الصدق.

وفيه عن صفوان بن سليم أنه قال: «قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ قَالَ: نَعَمْ.
فَقِيلَ لَهُ: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقِيلَ لَهُ: أَيْكُونُ
الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ قَالَ: لَا».

في الموطأ أيضًا هذا النص، صفوان تابعي والحديث
مرسل وفي إسناده مقال، لكن الشيخ أورده من باب
التقوية لنتصور المعنى وإن كان المعنى واضحًا فيما
مضى.

الجبان خلاف الشجاع، ونحن ندعو: "اللهم إني أعوذ
بك من الجبن والبخل"؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال
إنه يمكن أن يكون الإنسان جبانًا في طبيعته بسبب
الصفات النفسية، والإنسان يساعد نفسه على ألا يكون
جبانًا، لكن الكذب اختياره؛ هو يساعد نفسه على

الخروج من الصفات النفسية مثل الجبن والبخل، لكن الكذب شيء باختياره، هو يقرر أن يقول هذا الكلام أو هذا، لذلك حينما سُئِلَ النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا؟" قال: "لا". و "كَذَّابٌ" صيغة مبالغة معناها: كثير الكذب، بمعنى أن الكذب أصبح كأنه مهنة له، فلا يكون المؤمن أبدًا بهذا الحال.

قال: وللترمذي وحسنه عن ابن عمر: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلِكُ مِثْلًا مِنْ نَتْنٍ مَا جَاءَ بِهِ».

هذا كلام ابن عمر، من تقبيح الكذب أن الكذبة الواحدة يكذبها الإنسان، الملك الذي معه يتباعد عنه مِثْلًا بسبب ما يكون من رائحة كريهة، معناه: أن هذه الأمور التي لا نراها ولا نشعر بها ولا نشمها، الملائكة تشعر بها وتشمها. الذنوب عند الناس ليس لها روائح، لكن على كلام ابن عمر هنا أن للذنوب رائحة وخاصة ذنب الكذب. هذا موقف على ابن عمر، والمعنى واضح أن هذا ذنب عظيم والواجب على المؤمنين البعد عنه.

إن شاء الله إن كتب الله لنا اللقاء مرة أخرى، نعود للكلام عن أنواع الكذب وزيادة بيان للنصوص.

السلام عليكم ورحمة الله